

عيسى فتوح

مريانا مراش
شاعرة حلب
١٨٤٩ - ١٩١٩

بقلم عيسى فتوح

***

اذا ما ذكرنا وردة اليازجي ، ووردة الترك في لبنان ، وعائشة التيمورية في مصر ، ذكرنا مريانا مراش في سورية .. فهي شاعرة حلب الاولى بلا منازع ، قبل نصف قرن تقريبا ، واخت العالم الطبيب الشاعر فرنسيس مراش ، والتاجر الاديب عبد الله مراش ؛ اما ابوها فهو فتح الله مراش صاحب المكتبة المراشية الكبيرة التي سارت بذكرها الانباء .

ولدت مريانا في حلب عام ١٨٤٩ وفي بيت غني بقضايا الادب والفكر ، فمنذ ان فتحت عينيها على النور ، رات نفسها محاطة بالكتب ؛ وعندما ايفعت بدات تتلمذ على اخيها فرنسيس الذي لقنها العربية ؛ اما الفرنسية فتلقتها في مدرسة راهبات مار يوسف .

كانت بيروت تعيش في ذهن الصبية الحسناء ، تحلم بها وتتمنى لو تنهي دراستها في معاهدها الاجنبية التي تعد بالعشرات ؛ وكيف لا يحلم بتلك المدينة كل اديب ، وهي التي كانت ولم تزل مصدر الاشعاع الفكري، وملتقى التيارات الادبية في العالم . حتى لقبت بباريس الشرق .. وهكذا غادرت الطالبة الشاعرة مدينة الشهباء لتدخل المدرسة الانجيلية التي انشأها يوحنا وورتبات . وتنمي ثقافتها العربية والانجليزية ؛ لان ثقافة البيت لم تعد تنقع غليلها وتشبع نهمها ؛ وتروي ظمأها الى العلم .

ويشاء القدر ان لا تمكث طويلا في بيروت ، فعادت من حيث ذهبت ، اسيفة مكدودة الذهن : لتستأنف الدراسة على ابيها علامة عصره ، فاتقنت عليه قواعد الصرف واصول النحو والعروض .. ولم تقف عند ذلك بل طفقت تتعلم الموسيقا على نفسها حينا ؛ وتتلقى بعض الدروس في العزف على القانون والبيانو حينا اخر ، حتى اجادت ذلك كله . ومضت سنوات واذا بالفتاة تأنس من نفسها القدرة على النظم ، فتنظم بضع قصائد تبعث بها الى مجلة « الجنان » التي كان يصدرها المعلم بطرس البستاني — اول من دعا الى تعليم المرأة — فتقع من نفسه موقعا حسنا .. وهكذا راح اللغوي الكبير يشجعها من بعيد ويرعى موهبتها الشعرية ، وينشر لها مقالاتها النثرية التي تنتقد فيها عادات فتيات عصرها ، وتحضهن على التزين بالعلم والتحلي بالادب .. ومثل ذلك فعل خليل سركيس صاحب جريدة « لسان الحال » .

يقول الاستاذ المرحوم سامي الكيالي : « كانت مريانا مراش تنتقد التقعر في اساليب الكتاب وتدعو بنات جنسها الى معالجة الكتابة ؛ والى تحسين الانشاء ، وتنويع الموضوعات والتفنن فيها ، وقد سافرت الى اوروبا واطلعت على اخلاق الاوروبيين وعاداتهم عن كثب ، فاستفادت منهم كثيرا ، ثم عادت الى وطنها تبث بين بنات جنسها روح التمدن الحديث والاخلاق الصحيحة » .

ويقول في مكان اخر : « كانت مريانا لزمنها من الشاعرات المشهورات .. فهي اول اديبة سورية كتبت في الصحف ، ولا سيما بعد زيارتها لديار الغرب .. وظهور امراة تكتب في الصحف وتنظم الشعر في تلك الفترة المظلمة حادث له دلالته ، وتاريخنا القريب يقول ان الذين يقرؤون ويكتبون من الرجال في تلك الفترة بالذات من الندرة بمكان لذلك كان ظهورها في خضم تلك الليالي المربدة المظلمة اشبه بالنجمة المضيئة في كبد السماء » .

ان ما خلد هذه الشاعرة في تاريخ ادب المراة الحديث؛ ليس ديوان شعرها فحسب ، بل صالونها الادبي الذي يعتبر الوحيد من نوعه في الشرق ، قبل ان يكون صالون مي زيادة الذائع الشهرة في وادي النيل ، ولعل رحلتها الى آوروبا ؛ ومشاهدتها الكثير من آمثاله عند السيدات الغربيات كمدام دي ستايل ، ومدام دي نواي شجعتاها على اقامته ، رغم ضيق الحياة الاجتماعية في تلك الاونة المظلمة من العهد العثماني البغيض .

كان رواد صالونها نخبة من ادباء حلب يومذاك

كقسطاكي الحمصي . وجبرائيل الدلال ، وكامل العزي . ورزق الله حسون . وغيرهم ، يحيون فيه اسرة واحدة . ويتطارحون الشعر ، كل واحد يلقي ما كتبه او نظمه في فترة غيابه عن الصالون : اما مريانا الشاعرة فكانت تلف الجميع باغمار الحب الدافيء : والانوثة العبقة : والمرح البريء ، وتوزع ببراعة فائقة ظرفهـا ورقة شمائلها ، واشراقات مبسمها العذب ، حتى يخرجوا وهم يلهجون بلطفها وحسن معشرها ، مسحورين بانغام قانونها العذبة.

يقول قسطاكي الحمصي احد رواد صالونهـا الدائمين : « كانت مريانا مليحة القد ، رقيقة الشمائل، عذبة المنطق ، فكهة الاخلاق ، طيبة العشرة ، تميل الى المزاح ، حسنة الجملة ، عصبية المزاج .. وكان منزلها مثابة الفضلاء وملتقى الظرفاء والنبهاء ، وكان لنا عندها منزلة ترتد عنها اعين الحساد كليلة ، لما كان بيننا وبين شقيقها عبد الله من المودة الجزيلة الطويلة ، فسقيا لايام الشباب ، ومجالس الاداب والأحباب ، ومساجلاتنا بالمحفوظ والبديه من الاشعار ، ورقصنا على العود والمزمار » .

عندما اسرف الاتراك في تضييق الخناق ، وبث الرعب والفوضى ؛ واشاعة الذعر في صفوف المواطنين وبخاصة حملة الاقلام منهم ، والمح في نفيهم او سجنهم ، او تقتيلهم ، اضطر هؤلاء الى مغادرة البلاد مرغمين ؛ تاركين في الوطن احبابا يذوبون شوقا اليهم ؛ وحنينـا الى نشق عبيرهم ، ولا سيما من عمروا صالون مريانـا بنكاتهم الطريفة .. لقد انفرط عقد هؤلاء الادباء ، واقفر الصالون الا من مريانا .. فر جبرائيل الدلال ، وهو في طليعة المغضوب عليهم ، الى باريس ، بلد الحرية والنور ، ومن هناك راح يراسل صديقه القيم قسطاكي الحمصي ، ويصف له حياة الفرنسيين الطليقة من كل قيد ، وحريتهم التي يعتبرونها لا اثمن ولا اغلى ، وانه بالرغم من كرهه الغربة ؛ راض بها ما دامت تصون كرامته ، وتحمي شرفه من الاذى يقول :

واذا لم يكن هنا غير ان الحر فيهـا يعيش دون منـازع
فهو يكفي حظا لقلبي وان سالت على غربتي غروب المدامع
لم تبق لي الارائل في الشهباء من مآرب ولا من مطامع

وعندما يذكر الشهباء ، لا بد أن يذكر مريانا ربة الفضل والفضائل كما يقول ؛ ومجالس الأدب اللطيفة في ردهتها الانيقة ، ويتحسر :

لا ولا اشتهي سواكم ولا ارغب فيهـا من بعد تلك الوقائع
غير قرب الفريدة اللطف ذات الصون والحسن والذكا والبدائع
ربة الفضل والفضائل (مريانا) التي ذكرها يسر المسامع
والتي زانها الكمال اذ زان سواها الحلي وسدل البراقع

شعرهـا

من يتصفح ديوان مريانا الصغير الحجم (بنت فكر) يجد فيه قصائد بعضها في المدح وبعضها الاخر في الغزل والرثاء وشعر المناسبات والالهيات والاخوانيات . ذلك ان الشاعرة مدحت عددا من رجال السلك الديبلوماسي الذين كانوا يفدون على صالونها ، كما مدحت نفرا من رجال الحكم من عرب واتراك ؛ ولكن لا يقعن في الظن انها كانت تمدح بغية صلة من مال او بغية عطاء : بل عن اعجاب وتقدير : ولذلك نحس عندما نقرأ هذا الشعر ؛ بانه يفيض بالود ، وينضح بالاخلاص : ويبعد عن التزلف بعد السماء عن الارض .. فمن قولها تمدح السيد ايفانوف قنصل روسيا آنذاك :

بزغت شموس السعد بالشهباء   فجلت لياليهـا عن الظلماء
قشعت غيوم الضيم عنها فانجلت   كعروسة تزدي ببدر سماء
وغدت بهـا السكان تمرح بالهنـا   وتجر ذيل مـودة وهنـاء

ومن قولها تهنيء جميل باشا بولاية حلب سنة ١٨٨١ :

افديه لا افدي سواه جميلا   اولى المحب تعطفا وجميلا
بدر عنت دول الجمال لحسنه   فابى لذا تمثالـه التمثيلا
فاذا تجلى فوق عرش كماله   تجثو له زهر النجوم مثولا
واذا توارى في حجاب سناته   لا تبلغ الجوزا اليه وصولا

وقالت تهنيء احدى الجميلات من صديقاتها :

من كل غانية زهت بجمالهـا   ودلالهـا كالروضة الغنـاء
ماست كغصن فوقـه بدر له   مرای الثريا في بديـع بهـاء
بحواجب مقرونة قد اوترت   قوسـا ترن بها سهام فنائي
ان كلمت صبـا بنبل لحاظها   كان الشفاء لـه بعذب الماء
حتى ترد اليه ذاهب روحـه   فيعود معدودا من الاحيـاء

وقالت ايضا :

من كان من اهل الفضائل والنهى   وغـدا اسـير شمائل وعيون
يهوى الجفاء من الحبيب فان جفا   يزدد بـه كلفـا وفرط شجون
يشكو له ويظـل يشكو فعله   ان التعفف شيمة المفتون

اما رثاؤها فيكاد ينحصر في اهلها وأقربائها ، وكلهم عزيز عليها ، اثير عندها .. رثت اخاها فرنسيس المتوفي سنة ١٨٧٣ رثاء ينم عن عاطفة جياشة ولا عاطفة الخنساء نحو اخيها صخر وما دام تجانس المصاب قد جمع بينهما ــ كلتاهما فقدت شابا كريما عليما شهما ــ فلا غرو ان تلتقيا في اكثر من نقطة ، وتتقابلا في اكثر من منعطف ؛ ويقع الخاطر على الخاطر ، كما يقع الحافر على الحافر .. لقد لجأت مريانا الى تعظيم اخيها واظهار فضله وعلمه وادبه، والاشادة بمناقبه وشهرته الواسعة ، وتهويل فاجعتها به. حتى انها اشركت الورق والازهار والرياض ؛ ومظاهر الطبيعة كلها من جو وماء ، وهي لا تخفي تأثرها بالخنساء بل تصرح به تصريحا فتقول :

ما لي ارى اعين الازهار قد ذبلت   ومال غصن صباها من ذرى الشجر
ما لي ارى الروض مكمودا وفي كرب   والماء في انة والجو في كدر
ما لي أرى الورق تنعي وهي نادبة   فراق خل وتشكو لوعة الفكر
نعم لقد سابق الاحياء اجمعها   ونام ذا اليوم مطروحا على العفر
من فقـه الناس في علم وفي ادب   ونـور الكل في شمس من الفكر
ابدى من الفضل ضوءا لا خبو له   والشمس شمس وان غابت عن النظر
وانـه بحر علم لا قرار لـه   وقـد حوى كل منظوم من الدرر
هذا الذي جابت الاقطار شهرته   قد صار مطرحا في اضيق الحفر
خنساء صخر بكته حينما نظرت   اليـه ملقى بلا سمـع ولا بصر

الـلام اهل النهى ترثيه وا اسفي   هل عـاد من عـودة يا مفرد البشر
قدغاب شخصك هذا اليوم عن نظري   جادت عيوني بدمع سـال كالمطر
فيا لدهر خؤون لا زمـام لـه   قد راش سهما اصاب الفضل بالقدر
فحزن يعقوب لا يكفي لندبك يـا   ندبـا تفرد بالاجيـال والعصر
ويلاه من حزن قلب نـال غابنـه   قد واصـل القلب في غم مدى الدهر
في لجة الحزن نفسي ضاق مسكنها   من ذا يسلي فؤادي قل مصطبري

ما لي اطنب في وصف عاطفتها وعاطفتها كعواطـف كل امراة ، وهل تحتاج عواطف المراة الى دفع او اثـارة او تحريك لتتفجر ؟ افلا يكفي ان اقول انها عاطفـة اخت وكفى .

ولمريانا هذان البيتان في رثاء صبية من نسيباتهـا توفيت محترقة بالبترول :

عقالة نفس مع بديـع محاسـن   ورقـة اعطاف فلله كم تسبي
لقد جمعت ضدين في حد ذاتهـا   ففي اللحظ ايجاب يشير الى السلب

اما غزلها فهو الوجه الاخر المناقض لرثائها ؛ لان كلا الفنين يقوم على العاطفة الرقيقة والوجدان الحي المنصهر .. انه صدى لحبها العميـق ، وتاثراتها الداخليـة ، فلنسمعها تقول :

بذكر المعاني هـام قلبي صبابـة   فيا نور عيني هل اكون على القرب
عسى الشمس في مرآك للعين تنجلي   فتنقل للابصار ما حـل بالقلب

ولنسمعها تشطر احدى قصائد الغزل الشهيرة ــ والتشطير كان « موضة » ذلك العصر وما قبله ــ فتصف افاعيل الغرام بالمغرمين ، وثبات بعضهم على الحب لا يروم لسنته تبديلا :

« للعاشقين باحكام الغرام رضا »   يسمون صرعى به لم يانفوا المرضا
لا يسمعون لعذل العاذلين لهم   « فلا تكن يا فتى للجهل معترضا »
« روحي الفداء لاحبابي وان نقضوا »   ذاك الذمام وقد ظنوا الهوى عرضا
جاروا وما عدلوا في الحب اذ تركوا   « عهد الوفي الذي للعهد ما نقضا »
« قفوا استمع سيرة الصب الذي قتلوا »   وكان يزعم ان المـوت قـد فرضا
اصابـه سهم لحظ لم يبال بـه   « فمات في حبهم لم يبلغ الغرضا »
« راى فحب فرام الوصل فامتنعوا »   فما ابتغى بدلا منهم ولا عوضـا
تقطع القلب منـه بانتظـار عسى   « فـام صبرا فاعيا نيـله فقضى »

لم يكن في وسع مريانا ان تكون غير ما كانت ، لان طبيعة الفترة التي عاشت فيها فرضت عليها نوعا مـن النمطية ، وجعلتها تنحو منحى من تقدموها من الشعراء ، وتسير على خطاهم التي رسموها ، دون ان تحيد قيـد شعرة .. تكرر ذاتها ، ليس لان الجراة كانت تعوزهـا فحسب ، بل لان الجمود السياسي فرض عليها شيئا من الجمود الفكري ..

لقد اقبل الشعراء في زمنها على شعر التصـوف والتعبد ، نتيجة اشتداد الحروب وتفاقم المحن ؛ لعل الله يكشف غمائم الكروب .. فزع الناس الى ربهم يعتصمون بحبله ، يمدحونه حينا ، ويستشفعون رسله حينا اخـر بقصائد اطلق عليها اسم « البديعيات » لعله يفرج الازمات ويحل وثاق الشعب المغلوب على امره ، ولا غرو فالله كان ولم يزل ملجأ كل ملهوف ، وملاذ كل مستضعف : ومثاب كل حائر مضطرب .. ولو رجعنـا الى دواوين شعراء عصور الانحطاط لرأيناهـا حافلة بالقصائد الدعائيـة والابتهالية .. حتى لتوشك ان تكون تسابيح وصلوات ترتل في الكنائس والمساجد ؛ علما بان معظم من كانـوا ينظمونها ليسوا من رجال الدين قالت مريانا في ذكر خالق السماوات وبارىء الكائنات :

الله اكبر انـت الحي والصمد   مقصـود كل البرايـا واحد احد
لا ينعم المرء في الدنيـا بلا امـل   فالوعـد منك وانت العون والمدد
ان قل رزق فانت الفضل اوسعه   او حل بؤس فانت الرفق والعضد
وكل من رام شيئا من سواك غوى   ولا يقر له حـال ولا سنـد
اذا مددت يدا في يـوم معركـة   فتخمـد النـار والابطال ترتعد
يا مبدع الكون يا مهدي الانام الى   سراط حقك ان ضلوا فيرتشدوا
يا من يجيب نـداء المستغيث به   يا من عليه جميع الناس تعتمـد

وقبل ان انفض يدي من هذه الدراسـة ، لا بد ان اشير الى ضرب اخير من شعرها ، كان بمثابة حجر الغلق في مدماك البناء الشعري ، او هو الحلقة الذهبيـة التي لا تتم دورة النظم الا بها ، تلكم هي الحكمـة : مسرح آراء الشعراء في الحياة ، ومنطلق نظراتهم الفلسفية .. انهـا القالب الذي يصب الشعراء فيه خلاصة تجاربهم ؛ او الإناء الذي يستوعب اختباراتهم ، تقول الشاعرة :

شرف الفتى عقل له يسمو على   كل الورى فينـال غايات المنى
وكذاك حسن الخلق فخر مسود   متسربـل بالعطـف نعم المقتنى
والمرء ان شهدت له افعالـه   بالفضـل والاداب يكتسب الثنا
ما كل من طلب الكرامـة نالها   من رام صيد الظبى حل به العنا
ذو المال يذهب ذكره مع مالـه   لكن ذكر الفاضلين بلا فنـا

بقي ان اشير الى هذه الابيات الاربعة من اخوانياتها تطالب بها احد الفضلاء بانجاز وعد وقد ضمنتها المثل المعروف « وعد الحر دين » :

يا ذا الوفاء والدين انت وليـه   وعـلاء فضلـك دونـه الجوزاء
هل تذكر القول الذي سمحت به الـ   ـنفس النقيـة واليـد البيضـاء
فالوعـد عنـد الحر ديـن ثابت   وبوعـد مثلـك يحسن الايفـاء
انجز به واقبـل ثناي ودم على   طول المـدى تخضـع لك البلغاء

لم يصف الدهر لمريانا مراش كل الصفاء ؛ فبعد ان فقدت اخاها فرنسيس ــ الذي كف بصره ــ واباها وامها شعرت بانها وحيدة ؛ ولذلك آثرت الزواج فاختـارت حبيب الغضبان الحلبي ، الا انها لم ترزق ولدا .

اصطلحت عليها الادواء في شيخوختها حتى جردتها من كل اثر من آثار الفتنة والجمال ، وصبغت وجههـا الزاهي بصفرة الفناء ؛ لكنها ظلت تابى على شيخوختهـا اليائسة بلمسات ناعمة واهية من اصابيع بيانها الساحر ؛ فتبعث في نفسها الامل بالبقاء قليلا ، الى ان اطفا المـوت عينيها في حلب عام ١٩١٩ تاركة صدى ادبيا يتردد على مر الزمان .

دمشـق   عيسى فتـوح

فدوى طوقان

شاعرة وفية لانوثتها

بقلم محمود الشهابي

* * *

يطالب القارىء ديوان احد الشعراء فيلمس سمة خاصة تموج بين ثنايا الابيات : تزدهر كلما كان موضوع القصيدة يساعد على ذلك ، وتتوارى احيانا لعدم تناسب الغرض ؛ ولا يغض من شانها كونها تارة ترتفع واخرى تنخفض ، آونة تتضح واخرى تتوارى ، وقد نجد بعض الصفات الثانوية لدى الشاعر — غير ان مجموع شعره يتلون بهذه الصبغة دون سواها ، حتى لا يرى القارىء باسا من ان يجعلها صفة مميزة له ، ودليلا على شخصيته . ولقد تالقت امام ناظري وانا اتصفح دواوين الشاعرة « فدوى طوقان » ظاهرة الانوثة : فالشاعرة — كما ارى — محافظة على طبيعتها تمام المحافظة ؛ معجبة بانوثتها غاية الاعجاب فهي لا تتجاوز حدود جنسها الى تكلف مظاهر الخشونة، تفصح اشعارها عن هذا ، احيانا بوعيها وارادتها ، وآونة تنساق الى ذلك بفطرتها وطبيعتها ، فهي تنظر الى مكانة نفسها تجاه الرجل نظرة الانثى السوية حيث تعتبر ذاتها جوهرة غالية يجب ان تصان من العبث والابتذال ، وهي غير قادرة على ذلك وحدها ، بل لا بد لها من قوة الرجل الذي يسهر على حفظها وصونها ويجعلها في منعة من الاخرين . فتخاطب فتاها بقولها :

وانا كنزك الذي تحتويه
بيدي باخل وحرص ضنين
وتواريه عن فضول العيون

ويتلالا الصدق في صوت الشاعرة حينما تسرح بخيالاتها الانثوية دون حرج، فاذا بها تترك العنان لسجيتها تنطلق ضمن نطاق احاسيس حواء ، فعند سماعها نداء المحبوب تتمثل لها تلك الاحلام الوردية ؛ وما في الشباب من فتوة وغواية :

يا حبيبي كلما ناديتني ... هاتفا عبر المسافات : تعالي
عبقت في خاطري يا جنتي ... جنة وانهل ضوء من خيالي
وبدا لي عالم ريان وردي الظلال ... من شباب وفتون وغوى
اسكرت افاقه خمر الهوى ... وتعرت فيه اطياف الجمال

ومن طبيعة المراة السوية انها لا تبدا الرجل بالنداء؛ وشاعرتنا تترك الرجل يخطو نحوها مناديا اياها، ثم هي لا تتردد في الاجابة معلنة استعدادها لتتبع خطوه :

ناديني من اخر الدنيا البي ... كل درب لك يفضي فهو دربي
يا حبيبي انت نحيا لتنادي ... يا حبيبي انا احيا لالبي
صوت حبي انت حبي
انت دنيا ملء قلبي ... كلما ناديتني جئت اليك
بكنوزي كلها ملك يديك ... بينابيعي باثماري بخصبي

ولا تقتصر ظاهرة الانوثة لدى الشاعرة « فدوى طوقان » على القصائد الوجدانية فحسب اذ نجد تلك الظاهرة في موضوعات متعددة ؛ بل انها تلوح في مناسبات ابعد ما تكون عن الاهواء وبامكاننا ان نلمس ذلك في قصيدة وطنية بها عنصر المأساة ، فقصيدتها « نداء الارض » التي تحكي فيها شوق لاجىء فلسطيني الى ارضه التي طرد منها — نجدها تمثل اوفى الوان العطاء نابعا من المراة ، فمن صدرها ينمو الطفل بالغذاء ؛ ومن قلبها يستمد الرجل سعادته وهناءه :

تمثل ارضا نمته وغذته ... من صدرها الثر شيخا وطفلا
وكم نبضت تحت كفيه قلبا ... سخيا وفاضت عطاء وبذلا

وحينما التقى اللاجىء بارضه جعلت الشاعرة الارض فياضة الانوثة؛ تشع على الرجل الحنان ، تغمره بالدفء، تلفه بالعاطفة :

واهوى على ارضه في انفعال يشم ثراها
يعانق اشجارها ويضم لالي حصاها
ومرغ كالطفل في صدرها الرحب خدا وفم
والقى على حضنها كل ثقل سنين الالم

وليس ببعيد ان يتصور الشعراء الرجال الارض كالمراة ، غير اني ارى ان التصور الرجولي الكامل لامومة الارض يجعل موقف الشاعر حيالها ايجابيا غير سلبي ؛ فلا يقتصر على زفرات الشوق والحنين ، ولا يقف عند اجترار الذكريات واستعذاب الالم .

وذلك ما لا نجده عند « فدوى طوقان » فتصورها الانثوي يتالق حينما جعلت لقاء اللاجىء بارضه بعد تلك السنين مشهدا غراميا يهز مشاعر المحبين ، ويجري مدامع القلوب المشبوبة بالوجد ، في خيال رومانتيكي مفجع ؛ فهو يقف بالنهاية عند سعادة العاشق لموته على صدر معشوقته ، وترحيبه بهذه النهاية :

وهزته انفاسها وهي ترعش رعشة حب
واصغى الى قلبها وهو يهمس همسة عتب
رجعت الي ؟ رجعت اليك وهذي يدي
سابقى هنا . ساموت هنا . هيئ مرقدي

ولقد كان من الممكن ان تختم المأساة هذه الخاتمة مع شعور اخر ، فبدلا من الاستسلام والاسترخاء يكون الصبر والعزيمة والجلد : ولكنها روح الشاعرة وليست روح الشاعر . لذلك فبعد ان قتل البطل كان المشهد باهت الظلال ، خاليا من الحيوية ؛ مرضيا للنفوس التي تميل الى الاستسلام ؛ وتتكلف الرضى به :

بدا الفجر مرتعشا بالندى ... يذرذره في الربى والسفوح
ومر بطيء الخطا فوق ارض ... مضمخة بنجيع نلوح
تلف ذراعين مشتاقتين ... على جسد هامد مستريح

الطفل

*

الهي لا تسمح بان يظمأ الشـذا وتذوي على ملد الفصون البراعم

وصن كل طفل يا كريم وطفلة ومن هو للاطفال الاك عـاصم

وان شئت كفكف دمعة اليتم ما بكى يتيم ومـا آسـت يتيما حمائم

وبارك كريمات الحسان حوانيا على الطفل ترعى حقه وتلازم

اذا الام مدت للسموات كفهـا همى الخير مدرارا وفاضت مراحم

الهي لا تسمح بحرمـان ناشيء من العلم يا من انت بالامر عـالم

امرت فكان الوحي للناس هاديا وما الهدى الا ان تسود المكارم

وديـع ديـب

واعتقد ان رؤية « فدوى طوقان » ذاتها بوضوح ـ اعانتها على التصور الصحيح لهمة الرجال وفهمها لخفايا نفسيتها بدقة ، اعطاها القدرة على استكشاف اغـوار الرجولة ، ولهذا حالفها التوفيق في تعبيرها عن عزيمـة الرجل ، فحينما اجرت محاورتها مع فتاها شعرا قالت على لسانه :

سابقى كالفـنـح صلب الجناح بوجه الحياة جريء القـدم

وان حطمتني الحيـاة فحسبي اني صمـدت فلـم انهـزم

ثم تثب فجاة خلال هذا الحوار الجدي لتسأله عن ماضيه الذي يهم كل امراة ـ اي عمن التقى بهن من بنات حواء فيجيبها :

عرفـت النسـاء وليمـة لهـو اعـدت لاشبـاع جـوع الجسد

ثم تزدهي الشاعرة بانها نوع نادر الوجود يصعب على فتاها ان يجد بديلا له

الى ان طلعت على الافق روحـا غريبـا كغربتـه الحـائرة

فكنت له الزاد والخمر والنـور والواحـة الخصبـة الباهرة

وتلح عليها طبيعة الانثى فتلفتنا الى احد مواطـن الجمال فيها وهو احمرار شفتيها وتبرزه بلباقة حـواء حينما تخفي مواطن الفتنة لتجعلها افتن ، فتترك فتاها ينبئنا بذلك ، اذ يقول :

وفي شفتيـك صببـت حنيني ورويت لونهمـا مـن دمي

على ان فدوى طوقان نفسـها ترى انها انطلقت في التعبير عن مشاعر بنات جنسها وانها تقف موقـف الريادة في الافصاح عن احاسيسهن :

كم فتاة رات بشعري انتفاضـا ت رؤاهـا الحبيـة المكتومـة

كان شعـري مـرآة كل فتـاة واد الظلـم روحهـا المحرومـة

ولقد تالقت انوثة الشاعرة في روح خصبة ريانـة حينما التقى بها شاعر ايطالي واطرى جمالها فطربت لهذا ايما اطراء وكاننا نلمحها تتمايل عجبا في قولها :

قلت في عينيـك عمـق انت حلوة

قلتها في رغبة مهموسة الجرس فما كنا بخلوة

وبعينيك نداء وباعماقي نشـوة اي نشوة

انـا انثى فاغتفـر للقلـب زهـوه

كلمـا دغدغـه همسك : في عينيك عمق انت حـلوة

وهي تدفع الشاعر عنها بذكر حبيبها العربي الذي ينتظرها ؛ وذلك عندها ليس في اهمية الافصاح عن نشوتها باطراء الجمال فكان التعبير عنه في مرتبة اقل :

انا يا شاعـر لي في وطـنـي وطني الغـالي حبيب ينتظـر

انه ابن بلادي لن اضيـع قلبـه انه ابن بلادي لن ابيـع حبـه

كما ان الموسيقى الشعرية غير متناسقة في البيتين بل ان الشطر الاول من البيت الثاني خـال من الوزن العروضي المعهود .

ولقد عادت الشاعرة في نهاية القصيدة الى ترديد القول بانها رائعة الجمال فاتنة الصورة وفي هذا المقطع بتالق المرح والازدهاء في نغمة موسيقية حالمة فيرق التعبير وتاتي الدفقة الشعورية على قدر المعنى في تناسـق بديع مع الوزن والقافية حيث تصدح انوثتها :

غير اني تعتـري قلـبي نشـوة

حينما تطفو ظلال الحب في عينيك او تومض دعوة

انـا انثى فاغتفر للقلـب زهـوه

كلمـا دغدغـه همسك : في عينيك عمق . انت حلـوة

انجلترا ـ جامعة اكستر محمود الشهابي

شاعر عراقي منسي

محمد امين بك آل ياسين المفتي

بقلم عماد عبد السلام رؤوف

*

شهدت الموصل ، والعراق بوجه عام ، منذ مطلع القرن الثامن عشر ، بوادر حركة ثقافية ذات طابع ادبي ، شملت اغلب مدنه الكبيرة ، مثل بغداد ، والنجف ، والحلة ، والبصرة ، وغيرها .

وكان لاستقرار الحكم في ايدي اسر محلية من ابناء البلاد من جهة ، وسطحية الحكم العثماني من جهة اخرى ، دورا رئيسيا في ابراز الشخصيات المحلية للولايات والمدن العراقية . فقد شجع الحكام المحليون الجدد ، امثال المماليك في بغداد والبصرة ، والجليليين في الموصل ، وغيرهم ، قيام تلك الحركة ، وامدوها بما تحتاج اليه من رعاية واهتمام ، فبرزت الى الوجود طائفة كبيرة من الشعراء والادباء والكتاب ، ممن ازدانت بهم الحياة الفكرية آنذاك .

ومن بين شعراء العراق في هذا العهد ، شاعر مجيد ، شاء سوء الحظ ان يبقى في طي النسيان حتى يومنا هذا ، فلم يعرف فضله وادبه — فيما نعلم — الا القليل ، مع ان في شعره من جزالة اللفظ ، وتنوع الاساليب ، والفائدة التاريخية ، ما يستحق كل دراسة واهتمام .

ذلكم هو الاديب ، الطبيب ، الشاعر الناثر : محمد امين بك بن ابراهيم بك بن يونس افندي بن ياسين افندي المفتي ، من اسرة آل المفتي الشهيرة في الموصل (١) ، وكانت هذه الاسرة قد نزحت من مدينة سامراء في منتصف القرن العاشر للهجرة (٢) ، واشتهر من رجالها محمود افندي رئيس العلماء ، وولده ياسين افندي ، الذي عرف بالمفتي لتوليه منصب الافتاء حينا من الدهر ، وشيد عددا من المنشآت العامة النافعة ، كمدرسته التي عرفت باسمه ، والخان الذي عمره للتجار (٣) . كما عرف من بعده ، ابنه يونس بك ، وهو اول من نال لقب (بك) من افراد هذه الاسرة .

ومما يبعث على الاسف ، ان معلوماتنا عن حياة هذا الشاعر جاءت في غاية القلة والابتسار ، فلم يذكر احد تاريخ مولده ، واغلب الظن انه ولد في حدود عام ١١٤٠هـ — ١٧٢٧م بدلالة ان صديقه ومعاصره امين العمري (المتوفي سنة ١٢٠٣ هـ ١٧٨٨م) ذكر في ترجمته القصيرة التي اوردها في كتابه (منهل الاولياء) ، انه « قد جاوز الان ستين سنة » (٤) ، واذا ما علمنا ان العمري الف كتابه هذا في حدود سنة ١٢٠١ هـ — ١٧٨٦ م ، يكون مولد الشاعر في التاريخ الذي حددناه ، او قريب منه .

نشاته ودراسته

في تلك البيئة العلمية العالية ، نشأ شاعرنا محمد امين ، فقرأ العلوم على عدد من علماء الموصل ، والاكراد ، وغيرهم .

وكان لا بد له ، وهو لم يزل شابا يسعى في طلب العلم ، ان يرحل الى بغداد ، ينهل من علمائها ، ويأخذ عن ابنائها فنون الادب ، فكان يشد اليها رحاله بين حين واخر ، ولا شك في ان لوجود خاله عبد الله بن فخر الدين ، ببغداد آنذاك ، اثرا في تردد الشاعر على هذه المدينة ، فقد مدحه بقصائد عديدة ، واثنى على سجاياه وحسن ضيافته وكرمه .

وممن اخذ عنهم ببغداد ، السادة الحيدرية ، الذين اطبقت شهرتهم في العلم والادب مدن العراق في ذلك العهد وبرز منهم في عصره العلامة صبغة الله الحيدري ، وولداه عيسى وحيدر المفتي (٥) .

اقامته

وكان يفضل ، اثناء اقامته في الموصل ان يقضي جل وقته في قرية بعشيقا (٦) القريبة ، حيث كانت له مزارع هناك ، وقصر ريفي بناه في تلك النواحي ، يختلف اليه بين حين واخر ، ويستقبل فيه ضيوفه وزواره من الموصليين وغيرهم ، وينقل اليه اسرته خلال فصل الربيع ، حيث تكون القرية « من متنزهات الموصل الفائقة ، ومراتعها الانيقة » ، وهي المشهورة بكثرة اشجار الزيتون والمشمش والكروم (٧) وبمناظرها الممتعة الخلابة . ويذكر المؤرخ الاديب امين العمري انه حل لديه ضيفا مرتين « والدنيا

---

(١) ذكر محمد امين بك في جميع آثاره انه حسيني النسب ، ولم نعثر في المصادر الاخرى ، التي ترجمت له او لاعلام اسرته ، ما يشير الى ذلك او ينفيه ، وتعرف هذه الاسرة اليوم بآل (شريف بك) .

(٢) شجرة نسب آل ياسين المفتي (مخطوط) .

(٣) منهل الاولياء لامين العمري ج١ ص ٢٢٣ ، والدر المكنون لياسين العمري (مخطوط) ، وعصام الدين العمري : الروض النضر (مخطوط) ، وعن المدرسة انظر : مدارس الموصل في العهد العثماني لسعيد الديوه‌جي ، مجلة سومر العراقية ج١و٢ — ١٩٦٢ — ص ٧٩—٨٠ .

(٤) منهل الاولياء ج١ ص ٢٤٨ .

(٥) ياسين العمري : غاية المرام ص ٢٦٢ وانظر ابراهيم فصيح الحيدري : عنوان المجد ص ١٢١ .

(٦) قرية تبعد عن الموصل مسافة ١٦ ميلا ، وردت اخبارها في القرن الثالث الهجري (٩م) واشاد ياقوت (معجم البلدان ١—٧٢٤) بجمالها ومائها وارحائها ، وفي العهد العثماني اصبحت بعشيقا اقطاعا (تيمارا) يتبعه ٢٠٠ رجل ، واهلها خليط من مسلمين ونصارى ويزيدية .

(٧) ياسين العمري : منية الادباء ص ١٢٤ . وتشتهر بعشيقا اليوم بالزيتون والبصل .

اذ ذاك مقبلة عليه . واوقاته في غاية الصفو ؛ وكان ينقل عياله اليها في فصل الربيع ؛ ويقضي عامة اوقاته بالسرور والنشاط » (٨) .

ونحن واجدون في ديوانه المخطوط نماذج عديدة لما قاله في التغني بقصره ، وما يحيط به من مروج ؛ وجداول وبساتين ، وما كتبه على اواوينه وابوابه واحواضه من ابيات ومقطوعات ، من ذلك ما كتبه على غرفة جديدة عمرها سنة ١١٨١ هـ ١٧٦٧ م :

بوركت يا غرفة باليمن قد بنيت	وبالسرور وبالافراح للناس
حيي وعزي وسري الوافدين لك	وانزليهم محلا اصله راسي
وان ارادوا رحيلا بعد راحتهم	فودعيهم بترحيب وايناس

ويصف مباهج قصره ، فيقول :

طوبى لك يا غرفة	فاقت بروضها الجنان
فتسر قلب نزيلها	وتحله وسط الجنان
اشجارها كخرائد	غيد مزينة حسان
اوراقها كزبرجد	وثمارها مثل الجمان
اطيارها وهزارها	دوما تغرد كالقيان
والحوض مثل بحيرة	اضحى معينا للعيان
حمامها كحمامة	بيضاء تشدو باللسان
بالله هلموا واسبحوا	واستغنموا فرص الزمان
وتنعموا وترفهوا	في غفلة الدهر الخوان

هجرته الى بغداد

ولم تشأ الاحداث ان يهنأ شاعرنا في قصره ، بعيدا عن المتاعب والنوائب ، فقد ادلهمت الخطوب في الموصل سنة ١١٨٤ اثر نشوب النزاع بين زعمائها ، وانقسام فرق الجيش (الينكجرية) الى فريقين متخاصمين ، اتخذوا من احياء المدينة ميدانا لحل خلافاتهم بالقوة (٩). فكتب يشكو الى خاله عبد الله بن فخر الدين ، كاتب ديوان الانشاء ببغداد ، ذلك الوضع ، قائلا : « انا لما كنا في عيش هني ، وفي حال سني ، قد غض الدهر طرفه عنا ، ولسان حال الزمان يقول اطلب ما تتمنى ، والافراح لدينا متطارحة والاتراح عنا متباعدة متنازحة .. اذ دهمتنا المزعجة الداهية ، وهي الفتنة العظيمة ، والمصيبة الوخيمة والبلية الاليمة اللميمة ، ولقد عمت المدينة والقرى ؛ وناهيك ما جرى : ان المسلمين استحلوا دماء اخوانهم ، واباحوا قتل اصحابهم واعوانهم ، وهاجت الغوغاء ، وهوت الاهواء ؛ وتحكم السفهاء .. وارعدت السماء باصوات المدافع .. واهتزت الارض ومارت ، واستدارت رحى الحرب ودارت .. وهاجت الفقراء ؛ وماجت الضعفاء ، وسدت الطرق بالجص والاحجار ، وانقطعت السبل من جميع الاقطار والامصار .. واستمرت الاحوال على هذا المنوال خمسة وثلاثين يوما ، والناس يعومون في بحر الفتن عوما » .

ويبدو ان الفتنة امتدت لتشمل قريته الجميلة بعشيقا . والظاهر ان حوادث تخريب جرت في املاكه . ادت الى احداث دمار في قصره القائم هناك . ففي رسالة بعث بها الى خاله آنف الذكر ، نراه يعتذر عن تأخره في الكتابة بسبب انشغاله « بمداواة المرضى من الفقراء والاغنياء ، وتجديد الدور ، وتشييد القصور ؛ وتعمير المدثور ، والبيت المعمور ، في قرية بعشيقا ، ذات القامة الرشيقة ، والرياض الانيقة ، والحياض الدقيقة .. ومنها امور لا تذكر لسوء المخبر ؛ وقبح الذكر » . وكتب الى احد اخوانه يشكو له فيها ما دهاه من الاحداث في الموصل، وتبدل اهلها عليه « فلا ترثي لي اذا بكيت ، ولا ترق لي اذا ابتليت ، لا ترحمني اذا اصطليت .. لا تقبل لي اذا اتيت ، ولا تصفو لي اذا صفيت » ونجده يتمنى السكنى ببغداد ، اذ يقول : « يا ليتني كنت مدى العمر معك ، في بلدتك مقيما ، فافوز فوزا عظيما ؛ فانعم بها من بلدة مأنوسة ، ومن ساحة محروسة .. »

والظاهر ان اقامته في الموصل لم تطل بعد تلك الاحداث ، فانه رحل الى بغداد في العام نفسه ، سنة ١١٨٤ هـ ــ ١٧٧٠ م ، حيث اقام فيها عدة سنين (١٠)، متمتعا بحظوة خاصة لدى الوالي الوزير عمر باشا (١١) ثم انه تزوج بنت من بنات بعض بيوتاتها ، وولد له عدة ابناء . على ان طول اقامته ، واستقراره ؛ لم ينسه مدينته الموصل ، ولم يشغله عن معارفه واصدقائه فيها ، ففي ديوانه طائفة من الرسائل والاشعار مما كان قد بعثه لاحبابه هناك . وشاء حظه ان يتوفى اثناء مكوثه في بغداد بعض اقاربه ، منهم خاله عبد الله بن فخر الدين واخوه السيد حسن افندي الزكي ، عام ١١٨٦ هـ ، وخاله السيد يحيى افندي المفتي في السنة التالية .

ولاسباب لا نعلم طبيعتها ، رحل شاعرنا الى القسطنطينية عام ١١٩٣ هـ ــ ١٧٧٩ تاركا اهله واصدقائه وهو يقول في قصيدة له ؛ معارضا البوشنجي الخراساني (١٢) :

كسب المعالي وحب الاهل والجار	ضدان ما اجتمعا للمرء في الدار
ان كنت ترجو المعالي فالتزم نصبا	او فارضى بالذل واسكن بين اشرار
لا بد للمرء من جاه ينال به	فخرا وعزا ليسمو بين اخيار
فالجاه ينفع في الدارين صاحبه	وفي الممات ويوقيه من النار

وتأخذ القسطنطينية بلبه ؛ فيصفها بارجوزة لطيفة مطولة ، ذكر فيها ما رآه من القصور والقلاع والمارستانات ودور السبيل والمساجد والحدائق والبساتين والجداول، على ان اقامته فيها لم تطل ، اذ سرعان ما غادرها متوجها

---

(٨) منهل الاولياء ج١ ص ١٤٨ .

(٩) ياسين العمري : الآثار الجلية في الحوادث الارضية (مخطوط) .

(١٠) يذكر ياسين العمري انه اقام فيها ستتين (غاية المرام ٣٦١) والظاهر ان اقامته امتدت اكثر من ذلك ، فانه تزوج سنة ١١٨٥ هـ ، وولد له غير ولد ، وهو ببغداد .

(١١) ديوان حسين العشاري ، الورقة ١١٥ (مخطوط) .

(١٢) محمد بن ابراهيم البوشنجي العبدي ، من ائمة اللغة وكلام العرب ــ توفي سنة ٢٩١ هـ .

ـ هذه المرة ـ الى الموصل .

استقراره في بعشيقا

لا ندري في ما اذا كانت رحلته هذه حققت اهدافها او لا . وعلى اية حال فاننا نجده يعود الى قريته بعشيقا سنة ١١٩٥ هـ ـ ١٧٨١ م : ليجدد ما اهمل في اثناء غيبته عنها ؛ وليعاود سيرته السابقة فيها ، فاضاف بعض المقاصير والغرف الى قصره هناك ووصف بعض ما شيده بقصيدة : جاء فيها :

ومقصورة مقصورة لاولي العلا   بقصر مشيد شيدته يد الرشد
احاطت بـه الاشجار من كل جانب   فاضحى كبيت الحمد والعز والمجد

ويبدو ان فترة اقامته الاخيرة في بعشيقا كانت اهنا فترات حياته واحلاها ، فقد نظم الشعر ، وانشا الرسائل ، وكتب المقامات ، والف الكتب ، وعانى اغلب انواع القريض . وكان يستقبل ضيوفه من ادباء الموصل وشعرائها بالقصائد الرنانة ، ويودعهم بها . كما كان يرسل اشعاره الى الولاة والحكام يهنئهم او يعزيهم ، لا طلبا لصلة : او طمعا بمال ، فان وضعه المعاشي كان يغنيه عن مثل ذلك : وانما مشاركة لهم في افراحهم واتراحهم ؛ وحبا بالشعر لذاته . وهو ما صرح به في غير موضع من ديوانه (١٢) . ومما يدلك على ذلك انه لم يكن يهتم بتدوين شعره ، وجمع قصائده ؛ وتاليف الدواوين ، كاغلب شعراء زمانه ؛ وانما كان ينظم الشعر « لمداعبة بعض الاخوان ، ولمعارضة بعض الاقران » ويقول « ولم ازل على هذا الحال : الى ان بلغت سن الاكتهال ، كلما نظمت شيئا تركته في زاوية النسيان ، وفي هاوية الهوان ، الى ان صار شيئا خفيا ، وكاد ان يكون نسيا منسيا » . ويبدو ان استقرار حياته ؛ وتوفر الوقت الكافي له في سكنه في ريف الموصل الجميل ، هيأ له فرصة جمع ما نظم ونشر في ديوان مستقل ، ورغم ان ديوانه جاء تقليديا في ابوابه ومطالبه ، اذ نظم في البديعيات ، والمعشرات ، وفي مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وبعض الانبياء والصحابة، ومدح الوزراء والاقارب والاخوان ، ونظم الحماسات والمضمنات ، والاراجيز والمواليا ، فان لنا ان نلحظ في شعره رقة بادية ، وعزة بالنفس ظاهرة ، وميلا الى وصف الجمال والتغني به ، وهي في الواقع : مظاهر شخصيته وانعكاس لاخلاقه وسجاياه . وكثيرا ما رق نسيبه . واسترسل في مقدماته الغزلية ، حتى تفوق من حيث البلاغة ورقة الاحساس ، سائر القصائد ، على تعدد مطالبها ، وتنوع اغراضها . فمما نقتطفه من قصيدة يمدح فيها الامام عليا رضي الله عنه ؛ قوله مضمنا ابيات الشهاب الموسوي الحويزي :

ماست دلالا كالقضيب الاسمر   ودعت فؤادي لم يزل يتحسر (١٢م)
وبدت تذب عن الرضاب عيونها   فحمت علينا الحور ورد الكوثر
يا راعي العضب الصحيح اذا رنت   اياك ضربة جفنها المتكسر
تغني الغداء لظبية الوادي التي   يبني الكناس لها بغاب القسور
كشفت لنا عن صحن صفحة خالها   كافور فجر شق ليل العنبر

وقال في قصيدة له يمدح بها خاله يحيي افندي المفتي : مضمنا بعض أبيات الشهاب المذكور :

سل باسم البرق صبحا عن ثناياها   فقد حكاها فهل يروي حكاياها
وسل مدير .... عن شهد ريقتها   اي الحبابين عند ... اشهاها
وهل درى الظبي لما شم عنبرها   في خدها اي خال في سويداها
لا زلت عمري للاطلال عامرها   ليلا واصبحت مجنونا بليلاها

ومن تشطيراته البارعة : قوله مشطرا قصيدة ابن الفارض المشهورة ، عام ١٢٠٧ هـ ـ ١٧٩٢ م :

قلبي يحدثني بانك متلفي   يا سيدي فانصف بحال المدنف
وفؤادي المضنى من البلوى جفا   روحي فداك عرفت ام لم تعرف
لم اقض حق هواك ان كنت الذي   يقضي رضابك اتمصه بمرشفي
لو كنت طول العمر ارشف ثغره   لم اقض فيه اسى ومثلي من يفي
ان الذي يفني حشاه وقلبه   في حب من يهواه ليس بمشرف

وقوله يمدح والي بغداد علي باشا سنة ١١٧٥ هـ ـ ١٧٦١ م :

رشيقة القد ذات الغنج والكحل   لقد غزتني بسيف اللحظ والمقل
وجردت مرهفا من لحظها وبدت   تميس تيها على الغزلان والحجل
ماست دلالا والوت وهي معجبة   تسبي القلوب بتلك الاعين النجل
مخمورة الجفن لا تنفك مقلتها   يردد الغنج فيها حيرة الثمل
قد حار ياقوت في نوني حاجبها   المكتوب في قلم الرحمن خط جلي
فثغرها حق در زانه حبب   كروضة زينت بالزهر والنفل
رضابها الشهد والكافور نكهتها   وريقها السكرى العذب كالعسل
بديعة نزهت بالحسن عن شبه   فريدة بالبها جلت عن المثل
يحول من دونها لج النصال ولو   رام العبور اليها الطيف لم يصل
ناشدتها الوصل يوما وهي ناملة   فلم تجبني ولم تصغ الى جدلي
باكرتها مرة اخرى وقلت لها   يا ربة الخدر رفقا فادفعي وجلي
فلم ترد جوابا من صبابتها   ولم تراقب حالي والوجود بلي
قالت: فما بك تبغي الوصل من جدل   فان جهلت مقامي فاتق سبلي (١٢ب)
فدون وصلي اهوال ومهلكة   دعني ، ونفسك فز فيها على عجل
اجبتها انني قد لذت في بطل   امنت فيه من الاعداء والعذل

ثم ينتقل الى المديح ببراعة مدهشة .

وله في مدح الوزير سليمان باشا الجليلي ، قبل ان يتولى مقاليد الحكم في الموصل :

سعاد بدت في الحي ام طلع البدر   ام ابتسمت سعدى فبان لها ثغر
الليلى تبدت بالمحاسن والبها   اهند تثنت من سناها بدا الفجر
ازينب قد تاهت وباهت بحسنها   وماست فمن اعطافها عبق العطر

ونظم في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم قصيدة جمع فيها كل انواع البديع ، وسماها « البديعية الموصلية الامينية في المدائح المحمدية النبوية » ، وقد فرغ منها في قريته بعشيقا اوائل شهر صفر سنة ١١٨٣ هـ ١٧٦٩ م

---

(١٢) من ذلك قوله ، في موال له ، باللهجة العامية :

نظمت الشعر من الفاظ ابكار   ولا تاجرت لا بحرفة ولا بكار

والكار ، كلمة فارسية ، بمعنى الشغل ، والعمل ، والمهنة .

(١٢م) الصواب بالرفع .

(١٢ب) الشطر معلول .

ونقتطف منها الابيات التالية :

براعني برعت بالحسن والحرم	لما استهلت دموع العين كالديم
تلفقت مهجتي والحب في نعم	وقلب عاذلنا في الهجر فينا عمي
لفقت كل جميل فيك من كرم	جازيتني بالعنا والقلب منك رمي
قالوا دع الحب وارجع عن محبته	قلت الغرام دعاني بـالي الرمم
لا تعترضي يا عذولي في محبتـه	فهو الشفيع فينا يـوم مزدحم

وقد اشاد معاصره امين العمري بهذه القصيـدة ، بقوله « رائقة النمط ، غريبة الحوك ، بديعة الصوغ ، بينة الانسجام ، وكم له مثلها من قصيدة عجيبة ومقاطيـع انيقة » . وكان قد اثنى على شاعريته بقـوله « له في الشعر باع طويل ، ونظر حاذق ، ومنظومات في غاية اللطف ومنثوراته في نهاية الظرف » . وقال عصام الدين عثمان العمري « له من النظم ما هو كالعقود والجوهر ، ومـن النثر ما هو في المذاق كالسكر المكرر » (١٤) .

ولديوان شعره ، اضافة الى ما ذكرناه ، اهميـة تاريخية خاصة ، فانه قد اشار فيه الى مناسبات واحداث شتى في معرفة عصره . من ذلك انه وصف طرفا من الحرب الروسية ــ العثمانية عام ١١٨٣ هـ ــ ١٧٦٩ م ، عنـد مدحه الغازي محمد امين باشا الجليلي والي الموصل الذي شارك فيها . ومنه انه ارخ حوادث عديدة ، مثل تعيين الولاة والحكام وعزلهم ، ووفيات الشخصيات البارزة في المجتمع العراقي آنذاك ، وبعض حروب ولاة بغداد مما له علاقة بالموصل في ذلك الحين .

ومن الديوان هذا ، نسخة بخط الشاعر ، ارخت قصائدها بين عامي ١١٧٥ و ١٢٢٠ هـ ، محفوظة في خزانة الدكتور محمود الجليلي في الموصل ، وقد استفدت من نسخة مصورة عنها في كتابة هذا المقال . كما توجـد نسخة حديثة من هذا الديوان في خزانة عباس العزاوي في بغداد (١٥) ، وثمة مجموعة مبتورة من شعره في خزانة داود الجلبي في الموصل ، مؤرخة في سنة ١١٨٤ هـ (١٦) .

ولمحمد امين بك ، كتاب آخر في الادب ، سمـاه « احلاق الذهب » ، رتبه على شكل مقالات متنوعة تبحث في الوعظ والنصح ، وذكر في مقدمته انه نهج فيه نهـج رسالة العلامة جار الله الزمخشري المسماة « اطـواق الذهب » ، ورسالة العالم الخويلي المعروفة باسم «اطباق الذهب » . وفي آخر الكتاب اورد المؤلف مجموعة من امثال العرب ، تليها مجموعة اخرى من امثال العامة والمولدين ، ثم مجموعة ثالثة في الامثال نظمها شعرا . منه نسخة بخط المؤلف مؤرخة في سنة ١٢٠٢ هـ ، في خزانة كتب الاوقاف ببغداد . وكان المستشرق كولدزيهر قد اشار في كتابه « بحوث في علم اللغة العربية » الى كتاب له سماه «اوراق الذهب في علم المحاضرات والادب » ولا نظن الكتاب الا « احلاق الذهب » نفسـه ، للتشابه الكبير بين العنوانين ، والموضوعين .

والذي يظهر لنا ان محمد امين كان ملما ايضـا ، كاغلب المثقفين في الموصل آنذاك ، بفنون الموسيقى والغناء ، فاننا نجد له بعض القصائد المنظومة على الحان مشهورة ، كالدوكاه ، والصبا ، والجاركاه ، وغير ذلك .

تمهره بالطب والتشريح

على انه لم يكن شاعرا اديبا وحسب ، بل كان طبيبا جراحا مشهورا ، له غير كتاب في هذا الميدان ، وقد ذكر امين العمري انه « مهر في علم الطب ، وله فيه مصنفات مفيدة ، وفوائد سديدة ، وعلاجاته ابقراطية ، وتدبيراته جالينوسية ، وبالجملـة فلا قرين له في علمي الطـب والتشريح » ، وذكر انه استفاد منه فوائد جمة في كـلا العلمين . وذكر عصام الدين عثمان العمري ان « لـه في الطب والادب ابواب ، لم يكن لغيره الى تلك الدور دخول» وقد مر بنا انه انشغل اثناء فتنة عام ١١٨٤ هـ بمـداواة المرضى من الفقراء والاغنياء ، وذكر ياسين العمري انـه لما قدم الى الموصل والي بغداد الوزير علي باشا سنـة ١٢٢٠ هـ ، « حصل به بعض الامراض ، فاستدعاه وقربه فعالجه ، وخلع عليه خلعة القبول والرضى » .

ومن مؤلفاته الطبية ، كتابه الذي سماه « الشفاء العاجل والدواء الكافـل » ، و « دستور العمـل في علاجات الجدري والحصبة والاحتراز من الوقوع فيهما » . والكتابان ضمن مجموع واحد بخط المؤلف ، اطلعنا عليه ، في خزانة جامع يحيى باشا الجليلي في الموصل .

وفاتـــه

ولسنا نعلم تاريخ وفاة هذا الشاعر العالم ، وان كنا نذهب الى انه جاوز الثمانين عاما ، بدلالة ما نص عليه امين العمري ، من انه كان يجاوز الستين عند زيارته له عـام ١٢٠١ هـ ، وان آخر اشارة اليه كانت في سنة ١٢٢٠ هـ ــ ١٨٠٥ م ، ففي هذا العام نظم ــ ارتجالا ــ ارجوزة . ارسلها الى ابنه محمد بديع في حلب (والارجوزة موجودة بخطه في ديوانـــه) . كما ترجمه ، باختصار : ياسين العمري ، في كتابه « غاية المرام » ، ولم يذكر وفاته ، وكان فراغه من تاليفه هذا الكتاب في ٢١ شعبان سنة ١٢٢١ هـ (الموافق ١٥ تشرين الثاني سنة ١٨٠٥ م) فتكون وفـاة الشاعر محمد امين بك بعد هذا التاريخ .

عماد عبد السلام رؤوف
المجمع العلمي ــ بغداد

---

(١٤) الروض النضر في تراجم فضلاء العصر . الورقة ١٢ ب(مخطوط)
(١٥) اشار اليها في تاريخ الادب العربي في العراق ج٢ ص ٢٩٩ .
(١٦) مخطوطات الموصل ص ٢٨٠ .



رشاد علي أديب

طرف من كتاب الاغاني

بقلم الفقيد رشاد علي اديب

* * *

ان كتاب الاغاني اروع الكتب الادبية وهو يحتوي على طرائف بارعة من الادب والشعر والتاريخ والقصص والنقد والفكاهة وكل ما يتعلق بالغناء والطرب لا نجدها في كتاب آخر وهو واحد وعشرون جزءا وقد استغرق تأليفه مدة خمسين عاما ولما اتمه مؤلفه قدمه الى سيف الدولة الحمداني فأعطاه الف دينار واعتذر له عن قلة المبلغ .

ولادراك اهمية ذلك الكتاب اذكر ما يروى عن الصاحب بن عباد الوزير الخطير والاديب الشهير فقد كان يصطحب معه في السفر حمولة ثلاثين جملا من الكتب ليطالع فيها فلما حصل على كتاب الاغاني اكتفى باصطحابه فقط .

وقد ولد ابو الفرج علي بن الحسين بن محمد في اصبهان سنة (٢٨٤) هـ وتوفي في بغداد سنة ٣٥٦ هـ (٨٩٧ ـ ٩٦٧ م) وهو اموي النسب هاشمي النزعة .

اخبار عاتكة الصحابية

بعد هذه المقدمة الوجيزة اروي طرفة عن اخبار عاتكة الصحابية الجليلة المتوفاة حوالي سنة (٤٠هـ) (٦٦٠م) وهي مدونة في الجزء السادس عشر من كتاب الاغاني مع اختلاف في اللفظ وتصرف في العبارة واختصار وشرح وتوضيح حسب الاقتضاء .

هي عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل القرشية العدوية صحابية مهاجرة شاعرة وكانت امرأة لها جمال وكمال وتمام في عقلها ومنظرها وجزالة رأيها . تزوجها عبد الله بن ابي بكر الصديق فشغفته حبا وغلبته على امره وشغلته عن سوق وتجارة حتى عن صلاة الجمعة فقد مر عليه ابوه مرة وهو ذاهب الى صلاة الجمعة فوجده يناجيها ويناغيها في علية وعاد من الصلاة وهما على هذه الحال فقال يا عبد الله اجمعت ؟ اي اصليت فرض الجمعة . قال اوصلى الناس قال نعم قد شغلتك عاتكة عن المعاش والتجارة وقد الهتك عن فرائض الصلاة طلقها فطلقها طلاقا واحدا فبينا ابو بكر يصلي على سطح له في الليل سمع ابنه عبد الله ينشد الابيات الاتية :

اعاتك لا انساك ما ذر شارق ... وما ناح قمري الحمام المطوق
اعاتك قلبي كل يوم وليلة ... لديك بما تخفي النفوس معلق
لها خلق جزل ورأي ومنطق ... وخلق مصون في حياء ومصدق
فلم ار مثلي اليوم طلق مثلها ... ولا مثلها في غير شيء تطلق

فرق له وهو المشهور برقة قلبه ورهافة حسه فاشرف عليه وقال له يا عبد الله راجع عاتكة فقال اشهدك اني راجعتها واسرع الى غلام له اسمه أيمن فقال يا ايمن انت حر لوجه الله تعالى اشهدك اني راجعت عاتكة ـ وقد اعتقه لتصح شهادته له ـ ثم عدا الى اخر الدار حيث عاتكة وقال :

اعاتك قد طلقت في غير ريبة ... وروجعت للامر الذي هو كائن
كذلك امر الله غاد ورائح ... على الناس فيه الفة وتباين
وما زال قلبي للتفرق طائرا ... وقلبي لما قد قرب الله ساكن
ليهنك اني لا ارى فيك سخطة ... وانك قد تمت عليك المحاسن
فانك ممن زين الله وجهه ... وليس لوجه زانه الله شائن

وأعطاها حديقة حين راجعها على ان لا تتزوج بعده فلما مات من السهم الذي اصابه بالطائف قالت ترثيه :

فلله عينا من رأى مثله فتى ... اكر واحمى في الهياج واصبرا
اذا شرعت فيه الاسنة خاضها ... الى الموت حتى يترك الرمح احمرا
فاقسمت لا تنفك عيني سخينة ... عليك ولا ينفك جلدي اغبرا
مدى الدهر ما غنت حمامة ايكة ... وما طرد الليل الصباح المنورا

فلما خطبها عمر بن الخطاب قالت قد كان اعطاني حديقة على ان لا اتزوج بعده قال فاستفتي فاستفتت علي بن ابي طالب فقال ردي الحديقة على أهله وتزوجي وحين زوجها دعا عمر عليا وبعض الصحابة الى بيته فطلب علي ان تستر عاتكة فتسترت فقال يا عاتكة :

فاقسمت لا تنفك عيني سخينة ... عليك ولا ينفك جلدي اغبرا

ليذكرها بوعدها وقسمها فقال له عمر وما اردت الى هذا ؟ فقال وما اردت الى أن تقول ما لا تفعل وقد قال الله تعالى « كبر مقتا عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون » وهذا شيء كان في نفسي احببت والله أن يخرج فقال عمر

ما احسن الله فهو حسن فلما قتل بطعنة لؤلؤة مولى المغيرة قالت ترثيه :

عين جودي بعبرة ونحيب	لا تملي على الامام النجيب
فجعتنا المنون بالفارس المعـ	ـلم يوم الهياج والتلبيب
عصمة الله والمعين على الدهـ	ـر غياث المنتاب والمحروب
قل لأهل الضراء والبؤس موتوا	قد سقته المنون كاس شعوب

وقالت ترثيه ايضا :

منع الرقاد فعاد عيني عيد	مما تضمن قلبي المعمود
يا ليلة حبست علي نجومها	فسهرتها والشامتون هجود
قد كان يسهر في حذارك مرة	فاليوم حق لعيني التسهيد
ابكي امير المؤمنين ودونه	للزائرين صفائح وصعيد

فلما انقضت عدتها خطبها الزبير بن العوام وبعد ان تزوجها قال يا عاتكة لا تخرجي الى المسجد وكانت عجزاء بادنة فقالت يا ابن العوام اتريد ان تمنعني لغيرتك مصلى صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وابي بكر وعمر قال فاني لا امنعك وترصدها عند اذان الصبح في سقيفة بني ساعدة فلما مرت به ضرب بيده على عجيزتها فقالت مالك قطع الله يدك وهي لا تعلم من هو ورجعت الى بيتها وبعد عودة الزبير من المسجد قال لها ما لي لم ارك في مصلاك ؟ قالت يرحمك الله ابا عبد الله قد فسد الناس بعدك الصلاة اليوم في القيطون افضل منها في البيت وفي البيت افضل منها في الحجرة والقيطون لنة البيت داخل البيت وهي تعني بأبي عبد الله زوجها السابق عمر بن الخطاب فلما قتل عنها الزبير في وادي السباع قالت ترثيه :

غدر ابن جرموز بفارس بهمة	يوم اللقاء وكان غير معرد
يا عمرو لو نبهته لوجدته	لا طائشا رعش اللسان ولا اليد
شلت يمينك ان قتلت لمسلما	حلت عليك عقوبة المتعمد
ان الزبير لذو بلاء صادق	سمح سجيته كريم المشهد
كم غمرة قد خاضها لم يثنه	عنها طرادك يا ابن فقع القردد
فاذهب فما ظفرت يداك بمثله	فيما مضى فيمن يروح ويغتدي

وكان الزبير كالاسد شجاعة وقوة والبهمة بضم الباء الجيش والمعرد الهارب والفقع الكماة البيضاء الرخوة والقردد الارض المرتفعة وفي المثل : اذل من فقع بقرقرة: لانها تكون تحت التراب تداس ولا تمتنع عن المجتنى . والقرقر الارض الملساء اللينة .

فلما انقضت عدتها تزوجها الحسين بن علي وكانت اول من رفع خده من التراب حين قتل وقد رثته بقولها:

وحسينا فلا نسيت حسينا	اقصدته اسنة الاعداء
غادروه بكربلاء صريعا	جادت المزن في ذرى كربلاء

ثم تأيمت بعده فكان عبد الله بن عمر يقول من اراد الشهادة فليتزوج عاتكة .

ويقال ان مروان بن الحكم خطبها بعد مقتل الحسين فامتنعت عليه وقالت ما كنت لاتخذ حما بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم والحمء بتسكين الميم بعدها همزة ابو الزوج والنبي العربي جد الحسين لامه والجد بمقام الاب ويطلق ايضا على من هو قريبه وفيه دون همز اربع لغات وهي الحمو بتسكين الميم بعدها واو والحما بالالف في اخره والحمو بضم الميم بعدها واو للاطلاق والحم وهو من الاسماء الخمسة ولا يأتي الاخير الا مضافا وقد جاء في الشعر مفردا دون اضافة ويجوز في الشعر ما لا يجوز في النثر .

ويروى ان عليا طلبها بعد مقتل الزبير فقالت اني لاضن بك على القتل يا ابن عم رسول الله — وكأنها لم تضن بالقتل على ابنه الحسين فقبلته زوجا لها —

طرفة ثانية

وهذه طرفة ثانية وردت في الجزء الثاني من الاغاني: تغنى طويس المغني المخنث لفتية من قريش في بطن محجر برثاء عاتكة لعمر بن الخطاب :

منع الرقاد فعاد عيني عيد   مما تضمن قلبي المعمود

فطرب من غنائه الحاضرون وقالوا له لمن هذه الابيات يا طويس ؟ فقال لاجمل خلق الله وجها واشامهم فقالوا بانفسنا انت من هذه ؟ قال والله من لا يجهل نسبها ولا يدفع شرفها تزوجت بابن خليفة نبي الله وثنت بخليفة خليفة نبي الله وثلثت بحواري رسول الله وربعت بابن نبي الله — اي ابن بنته وكلا قتلت. قالوا جميعا جعلنا فداك ان امر هذه لعجيب بآبائنا انت من هذه ؟ قال عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل فقالوا نعم هي كما وصفت قوموا بنا لا يدرك مجلسنا شؤمها قال طويس ان شؤمها قد مات معها فقالوا انت والله اعلم منا .

اقول ان طويسا نسي شؤمه وكان يذكره للناس متباهيا ويتندر به وقد قال عن نفسه مرة انه ولد يوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وفطم يوم مات ابو بكر وختن او بلغ الحلم يوم قتل عمر وزوج يوم قتل عثمان وولد له يوم قتل علي وقيل انه ولد له يوم مات الحسن وان امه كانت تمشي بين نساء الانصار بالنميمة وان ما ذكره عن نفسه يفوق كل شؤم ويجعله اشأم الناس

وطويس لقب غلب عليه اسمه عيسى بن عبد الله وكنيته ابو المنعم وغيرها المخنثون فجعلوها ابا عبد النعم وهو مولى بني مخزوم وكان طويلا مضطرب الخلق احول والناس يتشاءمون من الحول وقد ضرب بشؤمه المثل فقيل اشأم من طويس .

وكان ظريفا عالما بأمر المدينة وانساب اهلها واحوالهم سلط اللسان يتقن فنه الغنائي حسن الصوت واللحن والاداء مجيدا بالنقر على الدف يرعى حرمة قريش وهم يرعونه ويقربونه ويرغبون في غنائه وما وضعه الا تخنثه وهو اول من غنى في المدينة غناء عربيا بايقاع متقن ولقب بالذائب

لانه غنى بقول الشاعر :

قد براني الحب حتى كدت من وجدي اذوب

ويروى ان ابن سريج المغني الذائع الصيت قدم الى المدينة وجلس يوما في جماعة وهم يقولون أنت والله احسن الناس غناء اذ مر بهم طويس فسمع ما قالوه فاستل دفه من حضنه ونقره وتغنى بشعر ابن زهير المخنث وهو :

ان المخنثة التي	مرت بنا قبل الصباح
في حلة موشية	مكية غرثى الوشاح
زين لشهد فطرهم	وتزينهم يوم الاضاحي

فقال ابن سريج هذا والله احسن الناس غناء لا انا.

ولطويس من المئة الصوت المختارة غناؤه بشعر عبيد الله بن قيس الرقيات وهو :

يا لقومي قد ارقتني الهموم	ففؤادي مما يجن سقيم
اندب الحب في فؤادي فليه	لو تراءى للناظرين كلوم
ما لذا الهم لا يريم فؤادي	مثل ما يلزم الغريم الغريم
ان من فرق الجماعة منا	بعد خلفي ونعمة للئيم

ولما قتل مروان بن الحكم النغاشي المخنث لزندقته قال لمن جاءني بمخنث فله عشرة دنانير وبينما كان طويس يتغنى بشعر حسان بن ثابت الانصاري :

لقد هاج نفسك اشجانها	وعاودها اليوم اديانها
تذكرت هيدا وما ذكرها	وقد قطعت منك اقرانها
وقفت عليها فسادلتها	وقد ظعن الحي ما شانها
فصدت وجاوب من دونها	بما اوجع القلب اعوانها

جاءه الخبر بمقالة مروان فقال :ما فضلني الامير عليهم بفضل حتى جعل في وفيهم امرا واحدا ثم خرج حتى نزل السويداء على ليلتين من المدينة فلم يزل بها حتى مات في ولاية الوليد بن عبد الملك في السنة الثانية والتسعين من الهجرة النبوية وقد عاش احدى وثمانين سنة ذكرت آنفا بأن لطويس صوتا من المئة صوت المختارة ومطلعه :

يا لقومي قد ارقتني الهموم ففؤادي مما يجن سقيم

توضيح

وارى من المفيد التوضيح عن المئة الصوت المختارة واسباب جمعها كما جاء في الجزء الاول من كتاب الاغاني والصوت هنا بمعنى النغم واللحن كما اصطلح عليه فقد حكي ان الرشيد امر المغنين ومنهم ابراهيم الموصلي وابن جامع وفليح أن يختاروا له مئة صوت فاختاروها ثم امرهم باختيار عشرة منها فاختاروها ثم امرهم ان يختاروا ثلاثة منها ففعلوا وهذه الاصوات الثلاثة هي صوت معبد بشعر ابي قطيفة :

القصر فالنخل فالجماء بينهما اشهى الى القلب من ابواب جيرون

وصوت ابن سريج بشعر عمر بن ابي ربيعة :

تشكى الكميت الجري لما جهدته وبين لو يسطيع ان يتكلما

وصوت ابن محرز بشعر نصيب :

اهاج هواك المنزل المتقادم نعم وبه ممن شجاك معالم

وهذه الاصوات الثلاثة على هذه الطرائق لا تبقى نغمة الا وهي فيها .

وفي روايه ضعيفة لجحظة ان ابراهيم الموصلي احد اصحاب الاصوات الثلاثة المختارة في تغنيه بشعر العرجي :

الى جيداء قد بعثوا رسولا ليحزنها فلا صحب الرسول

وقد اخرجت هذه الرواية معبدا من بين اصحاب الاصوات الثلاثة واخراجه غير معقول كما ان ادخال الموصلي بدلا منه لا يصدق لا سيما وان بين الذين اختاروا الاصوات من هو مثله أو اهم منه كابن جامع فلا يمكن ان يفضله على نفسه .

وفي رواية عن ابراهيم المهدي وكان حسن الغناء والاداء ان اخاه الرشيد امر المغنين ان يختاروا له احسن صوت غني به فاختاروا له صوت ابن محرز في شعر نصيب وفيه صنعة كثيرة .

تلك هي قصة المئة الصوت المختارة وما اختير منها.

طرفة ثالثة

واختم مقالتي بطرفة ثالثة وردت في الجزء الرابع من كتاب الاغاني فقد جاء فيه :

طويس لقب واسمه طاوس ـ وصغر اسمه بعد تخنثه ـ وهو اول من غنى الغناء المتقن بين المخنثين واول من صنع الهزج والرمل في الاسلام وهما لحنان معروفان في ذلك الزمان وكان الناس يضربون المثل بهزج طويس فيقولون : اهزج من طويس .

قال حسين بن دحمان الاشقر : كنت بالمدينة فخلا لي الطريق وسط النهار فجعلت اتغنى :

ما بال اهلك يا رباب خزرا كانهم غضاب

فاذا خوخة ـ اي نافذة ـ قد فتحت واذا وجه بدا تتبعه لحية حمراء فقال يا فاسق أسأت التادية ومنعت القائلة ـ اي النوم في نصف النهار كالقيلولة ـ واذعت الفاحشة ثم اندفع يغنيه فظننت ان طويسا قد نشر بعينه فقلت له اصلحك الله من اين لك هذا فقال نشأت وانا غلام حدث اتبع المغنين وآخذ عنهم فقالت لي امي يا بني ان المغني اذا كان قبيح الوجه لم يلتفت الى غنائه فدع الغناء واطلب الفقه فانه لا يضر مع قبح الوجه فتركت المغنين واتبعت الفقهاء فبلغ الله بي عز وجل ما ترى فقلت له فأعد جعلت فداك قال لا ولا كرامة اتريد ان تقول اخذته عن مالك بن انس ؟ فاذا هو مالك بن انس ولم اعلم . وهو احد الائمة الاربعة في مذاهب الفقه وقد قيل فيه : أيفتى ومالك في المدينة وهو صاحب الموطأ الكتاب المعتمد عليه بفقه المذهب المالكي .

وهذه الرواية تدل على ان هذا الامام الجليل كان بارعا في كل علم وفن رفيع .

هذا طرف من الطرائف التي وعاها كتاب الاغاني المشهور وبالامكان استخراج مئات الطرف منه .

جبلة ـ سورية

رشاد علي أديب

محنــة بيروت

◎

دم ينهــل واكفــه انصبابــا   كسيل جــارف غمر الشعابا
تدفــق ناطقــا بلســان حــال   عــن المأســاة يرويها اقتضابا
اشار الى المجازر مستفيضــا   وقص عن الاذى العجب العجابا
افــاض ولــم يــدع للقــول بابا   وما ملــك البلاغــة والخطابا
الم تــك الســن النيران بكمــا   وملكــت الاعنــة والرقابــا
تثير الرعب ما عصفت ، فتغضي   لهــا الاحداق شجوا واكتئابا
ومــا تنفــك تجرف كــل طــود   غــواربهــا وتسفيــه يبابــا
وكم من صامــت لم يعط قــولا   افــاء بمعجــز طــال السحابا

دم في كل منحــدر ونجــد   ترامى صاخبــا يحكي العبابــا
هريــق على الهــوى طيشا وهدرا   وكم جر الهــوى عــورا وعابــا
اثــار الفتنــة العميــاء نــارا   زلازلهــا الاذى انتظمت عذابــا
وايقــظ للضغينــة كــل افعى   تمج المــوت والسم المذابــا
ضغائــن جملــت دهــرا بستــر   فلمــا استنفــرت كرت ذئابــا
ضغائــن حــددت للشر نابــا   واشرعــت القواضــب والحرابــا
احلــت ما الشرائــع حرمتــه   وجانبــت المــروءة والصوابــا
ولــم ترفــق بشيــخ او صغيــر   ولم تغمــد قواضبها احتسابــا
مجازر مثلمــا الاهواء شــاءت   وشــاء الغــدر ختلا واغتصابــا
تمثــل في الشوارع كــل يــوم   فتصطفق القلــوب لها اضطرابــا
ولــم تبــرح تكر بــلا انقطــاع   غوائلهــا اغتيــالا او خرابــا
مشاهــد للاذى في كل يـــوم   تعــاد فصولهــا بابا فبابــا
شواهـــد لم تــزل للحقد تحكي   عــن المأســاة رمزا واقتضابــا
فمــن جثــث ترامت في فضــاء   واشــلاء توســدت الترابــا
اذا هتــك الرصاص لهن ثوبــا   كساهــن الدم القانــي ثيابــا
وانقــاض الخرائــب قائمــات   تحــدث سائــلا يبغي جوابــا

معاهــد اينعــت وزكت رباهــا   واطلعــت المسومــة العرابــا
افــاءت بالمعارف من قديــم   على الدنيــا رحيقــا مستطابــا
وحــاكى صرحهــا في مشمخــر   نجــوم الافق طــولا والسحابا
اجــال التعــر عامرها يبابــا   وقــوض شامخــا وطوى قبابــا
واخلى ربعهـــا المعمــور الا   هواجس من رؤى طيفــا سرابــا
فلســت ترى بندوتهـــا سميرا   يصــوغ القــول الحانــا عذابا
وران بكلكــل صمــت عميــق   ثقيــل اللــج دفعــا وانجذابــا
سواحلــه البعيــدة ما ترامــت   تمــج على المدى قتما وصابــا
بني القطر الشقيــق لكم شجاني   تكالبــكم على زيــف غلابــا
اثرتــم فتنــة عصفت جحيمــا   وكنتــم امس للنــاس الشهابــا
يعــز علي ما اجترحــت يداكــم   من الفتــن التي سطرت معابــا
اسيــت لكم وكنت اخا محبــا   توخى النصح والراي اللبابــا
اخــاف غدا وليس غــد بعيــدا   اذا التاريــخ عاقــب او اثابــا

دمشق   عدنان مردم بك

قصة

البداية

بقلم جمعه محمد جمعه

انه الضياع دائما ؛ وفي اغلب الاحيان ؛ لكل نازح من الريف الى المدينة .. فالمدينة تستوعب احلام وآمال الشباب النازحين اذ لا يستوعبها الريف الذي نزحوا منه لتلقي العلم في الجامعة ؛ او للعمل في الوزارات او المؤسسات او الشركات .. ولا يجد النازح في العاصمة الكبيرة ما يعوضه عن حنان اسرته .. يشعر اول ما يشعر بالغربة والوحدة ، واحضان الوحدة قاسية ، واذرع الغربة طويلة تمتد بطول مسافات السفر .. يفر النازح من احضان الوحدة القاسية ، ومن اذرع الغربة الطويلة الى احضان المدينة ترفا ولهوا ومرحا ، وينغمس في الملذات والاهواء .

وجد شعبان نفسه داخل حجرة ضيقة من حجرات شقة يسكنها اخرون في حي المطرية الاهل بالسكان .. افتقد رحابة دار اسرته في البلدة .. شعر بالهواء الذي يتنفسه ضئيلا وكان الهواء في المدينة يوزع بقدر حتى يتمكن كل سكانها من اخذ نصيبهم منه .. بدات تنتابه حالات الشعور بالاختناق ، والضيق ، والغضب .. كان الزمن يمر عليه في بطء ممل قاتل .. الساعة بطول اليوم ، واليوم بطول الاسبوع .. ومع هذه الرتابة والملالة تعتلي راسه الخواطر والافكار عن اسرته ، وعن البلدة وعما كان يتمتع فيها به .. امضه التفكير في محاولة الخروج من دائرة البلاء الذي وجد نفسه فيه .

كانت تسكن في نفس الشقة اسرتان فقيرتان يكد عائلهما طوال النهار ؛ ويعودان في المساء .يتناول كل منهما عشاءه مع زوجته وابنائه ؛ وينام ليعاود الكد والكفاح من جديد صباح اليوم التالي .. شعر شعبان بتآلف ومودة مع الاسرتين ، خاصة الزوجتين اللتين كانتا تتسابقان في خدمته .. تتفانيان في تلبية طلباته .. ومع المساء يتجاذب معهما اطراف الحديث قطعا للوقت .. كانت سعاد احدى الزوجتين صغيرة السن .. تعلو بصمات الفقر جمالها الاقل .. عرف قصة زواجها وهي في الخامسة عشرة من عمرها ، يعمل زوجها ميكانيكيا في احدى الورش .. انجبت ثلاثة اطفال اكبرهم في السنة الاولى الابتدائية .. وكانت سامية امراة في حوالي الاربعين .. اكبر اولادها يعمل صبيا في ورشة للنجارة .. تفتقر الى الجمال لانحدارها من نجع يتبع احدى القرى في اقاصي الصعيد .

كان شعبان من شباب الريف النازح متعطشا الى حياة المدينة .. تائقا الى التمتع بما فيها من مباهج ورفاهية .. وجد في سعاد بعض مآربه التي لم تتبلور بعد .. رآها في احلامه طوع ارادته واهوائه .. واخذا يتبادلان نظرات الغمز .. ويبديان مشاعر الحب في خفة وحياء .. كل منهما يحلم بالاخر بين ذراعيه .. قدمت له سعاد حنانا اشبه بحنان امه ، واهتماما فاق اهتمامها .. خففت على نفسه وطأة الغربة والوحدة فاحبها ..

كانت البداية ذات ليلة عندما سمع نقرا خفيفا على باب حجرته .. ترك فراشه متعجبا لتلك النقرات وعلى عجل فتح الباب ورأى سعاد اولى المفاجآت التي توقعها ولم يتوقعها في نفس الوقت ... مدت يدها بلمبة صغيرة من الصفيح يعلوها شريط من القماش قائلة :

ـ آسفة يا سي شعبان لازعاجك .. لم اجد عندي كبريت ..

هز شعبان راسه علامة الفهم .. نظر الى نفسه وهاله ان رأى جسده لا يستره سوى ملابسه الداخلية .. شمله الاضطراب وهو يحضر علبة الكبريت ويشعل عود الثقاب ويقربه من شريط اللمبة .. ضحكت سعاد ونفخت عود الثقاب المشتعل فانطفأ واشتعلت بينهما في تلك الليلة البداية ..

بدت الحياة الجديدة امامه ممتعة .. رائعة .. وقبل ان ياخذ العام الاول دورته الكاملة كان قد تعرف على كثير من الاصدقاء والزملاء الذين بداوا يحضرون اليه ويشاركونه السهرات في حجرته .. بدا شعبان يندفع وراء جنون شبابه لا يهتم ادنى اهتمام باي شيء .. لا بصحته ، ولا بماله ، ولا باسرته .. كف عن القيام بزياراته للبلدة .. واكتفى بارسال رسالة كل بضعة اشهر ، وانغمس بكليته في اللهو والترف ..

مضى عام ؛ وفي ذيله عام اخر ، وثالث ورابع ؛ وخامس .. وشعبان يعيش عازبا عبدا لاهوائه حتى سقط مريضا ولازم الفراش . نقلت وسائل البرق نبأ مرضه الى اسرته التي اسرعت اليه .. وبالكشف عليه امر الطبيب بنقله الى المستشفى لخطورة حالته ..

مكث شعبان في المستشفى حوالي العام تحت العلاج : زاره معظم اهل بلدته ، وبانتهاء العام خرج ليعود الى عمله والى حجرته ، وقد حذره الاطباء من الانغماس مرة اخرى في اللهو والعبث خشية اصابته بنكسة لن يخرج منها سليما هذه المرة ..

بدات امه تفكر في تزويجه لحمايته من شرور المدينة التي احاطت به ، وحتى لا يعود اليه المرض مرة اخرى ..

رفض شعبان الفكرة من اساسها .. غضبت امه واتهمته بالعقوق .. تركت له الحجرة وسافرت الى البلدة تحمل في اعماقها الدعاء له بالهداية.

ومر عام اخر تعرف فيه شعبان الى اصدقائه الجدد كمال ؛ وصبحي ، ومحمد .. وقد علموا بالجفوة التي وقعت بينه وبين اسرته .. انهالوا عليه لوما وتوبيخا وتانيبا، واستطاعوا ان يحولوه عما استقر عليه رايه بدوام القطيعة . واضطره الحاحهم الى السفر لاعادة جو المودة والرحمة بينه وبين اسرته.. حقق لهم شعبان ما ارادوا فقد توسم فيهم اصدقاء مخلصين ، وبعد عودته الى اسرته شعر بخروجه من دائرة الضياع والشرود والتيه ، وعثوره على بر الامان ، ادرك انه لاول مرة منذ ان هبط الى المدينة نازحا من الريف يشعر بالامان والطمانينة .. وبدا يفكر تفكير انسان سوي يريد ان يحيا كبقية الناس الاسوياء.. فكروا معه وله ، وحروه ان يفكر جديا في الزواج ، ودفعوه الى تحقيق امالهم التي راى فيها اماله واحلامه ..

انتهى شعبان من استعراض كل تلك الذكريات وهب واقفا .. طرح العباءة السوداء من فوق كتفيه والقى بها جانبا .. ذهب الى امه قائلا في غضب :

— امي .. امي اعدي حقائبي..

قالت في لهفة :

— ماذا جرى يا شعبان !

فتح منشجا بذراعيه :

— قررت السفر ..

قالت في حنان وحب :

— لماذا يا ولدي ؟ .. هل تضايقت منا ؟. ثم انك لم تمكث مع عروسك يوما واحدا .. الا تنوي المشاركة في ليلة واحدة لابن خالك ، وتقبل العزاء .. هل تظن ان اباك الحاج يوافقك على ذلك ؟.. ماذا جرى لعقلك الم تخبر اصدقاءك بانك



جمعه محمد جمعه

*

ستبقى معنا اسبوعا ؟

قال في ثورة :

— قلت مسافر ، وسأسافر لن يخطرني احد الى البقاء .

— وعروسك ؟

— سأحضر مرة اخرى ..

— وابن خالك ..؟

— مات وانتهى امره ..

كان جل اهتمامه منصبا على الهرب من البلدة ، يتمنى ان يغمض عينيه ويفتحهما ليجد نفسه في حجرته او بين اصدقائه، لقد صدمته كلمات ليلى ؛ وبعد ان كان يبغي الوقوف على حقيقة ما حدث من عايدة ابنة عمه .. انتابه شعور بان لا فائدة.. هناك بقع سوداء علقت بثوب البهجة اضيفت الى البقع الحمراء التي تمخض عنها حفل العرس الدامي.. هناك احمد ابن خاله القتيل ، وعزت ابن عمه القاتل والسجين ... هناك زوجة احمد واولاده : وزوجة عزت واولاده ، هناك الحزن يلد بذوره في بيت خاله : واخيرا هناك العيار المصوب اليه وإلى ليلى .. صوبته نجوى ومعها عايدة .. شعر برأسه كالقشة في دوامة .. اغمض عينيه وسقط على الكنبة وهو يحمل نفسه مسؤولية كل ما حدث .. صرخت امه مولولة :

— ابني شعبان .. ابني حبيبي

قال في صوت واهن :

— لا تخافي يا امي .. انني مثل القطط بسبع ارواح ..

ارتفع صوت الاسطه عزمي الحلاق مناديا من خارج الدار :

— استاذ شعبان .. تلغراف ..

خرجت الام ثم عادت الى ابنها وهي تقدم له البرقية وتنقل ما قاله لها الاسطى عزمي :

— تلغراف يا بني.. يقول تلغراف تهنئة ..

تناول شعبان البرقية .. قراها ودمعت عيناه .. امتلات روحه بالفرحة وفي داخله احساس بالفخر والعزة.. تمنى من اعماقه ان تشاركه ليلى في تلقي برقيات التهاني التي ستنهال عليه من اصدقائه وزملائه .. لقد تركها ولا بد ان يعود اليها وان يكون اكثر هدوءا .. لم يعد يملك الفرار الذي اعتاده امام كل مشكلة تعترض طريقه .. لم يعد شعبان الذي يحمل حقيبة ملابسه وحياته سفر دائم .. بل صار مقيدا بقيد من ذهب .

القاهرة — جمعه محمد جمعه

سليم عازار

شاعر الكلية

١٨٨١ – ١٩٠٧

بقلم فوزي سابا

* * *

في فلسفة الاغريق حكمة تقول : ما خطه الله لا تمحوه الالهة ، ونحن في لبنان ، كتب علينا العطاء المرسل المطلق، حتى اذا اكتمل يختم امرنا وكل ما فرض علينا .

من ذلك تفاوت اعمار اعلامنا ، لانها تقاس بالتمام المضروب عليهم ، ويكون فتيان الادب والشعر في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ، هم التدوين المؤصل في السجل الكبير ، بعدما حموا بجذوة من روعتها اختطاف كما اللمعان ؛ يسحرك فلا تدري . اهو الومض باق ام ذهب ، واتهم من هذا الومض الباهر .

من منا . حتى الذين عايشوهم على سماع ، يحس بانصرافهم : فحيف بالذين سامروهم وعاشروهم وعاشوا حياتهم ؟

ذلك الرائد الاول شاعر الحرية الياس صالح . اصابة لبنان به من شأنها ما جاء في الالياذة ، فالمدى الذي احتله عن ابلاغ الرسالات له هذا الخطف ، وتتبلل الحلقات فاديب اسحق ثم سليم عازار شاعر الكلية الذي خاطب غليوم الثاني عندما رفع قبعته احتراما امام قبر صلاح الدين الايوبي بدمشق بقوله :

ليس بدعا يا ذا الجلالة ان مثلت في تربة ابن ايوب صاغر
هو فضل لكنه كان فخرا لك لو كان في الزمان الغابر
يوم حطين ذكره سوف يبقى ابيض اللون في سواد الدفاتر

سليم عازار لم ينظم الشعر ، بل تكلم به ؛ سواء أكان فصيحا ام زجلا ؛ يتحدث اليك فالشعر على حديثه، ومتى على اصغاء ؛ فالشعر في عينيه وعلى جميع ملامحه. حتى قال فيه استاذه الدكتور كرهام؛ ولد سليم والابتسامة على فمه؛ ويقول عارفوه ، انه متى سنحت له فرص وجلس الى قهوته ، ولا يكاد يشعل لفافته حتى يقصر القلم بخط ما يجيش به صدره من الشعر :

اذا الزمان رماني بالنائبات الثقيلة
واصبحت اصدقائي مثل الفلوس قليلة
وضاق رحب رجائي وليس في الكف حيلة
اجلي الهم همي برقصة النارجيلة

بها الاقي خليلا لا يتبيع خليله

عصرهم : عصر الشعر والادب : فكان الطلبة يصدرون النشرات الخطية وكان لسليم صديق من آل عطيه ينشر مخطوطة باسم « الحرية » ويصدرها بالقول: للحرية شاعر خاص . وكان الكل يعلم انه يعني سليما . فسليم لم يكتب الا الشعر . ويحدث ان يرسب صاحب « الحرية » في امتحان الصف الثاني علمي – المحول – فيقول فيه سليم :

عدت للمحولين والعود احمد عادة الباشوات ان تتجدد
قد فقهت الدروس جدا فشاءوا ان تعيد الماضي فلم تتردد

فعرف صاحبه فيما بعد باسم الباشا .

ولد سليم عازار في غرزوز من قضاء جبيل سنة ١٨٨١ وتلقى دروسه الابتدائية في مدرستها ثم في الجامعة الاميركية في بيروت حيث أنهى السنة الثانية في كلية الطب ، لكن ما فيه من سجايا شعرية وطاقات حملته الى الهجرة ؛ فالقى امره في الولايات المتحدة الاميركية يحرر في جريدة « الهدى » وسواها من الجرائد والمجلات ، حتى اصيب بداء السل ، ولما ثقل عليه عاد الى حلوان في مصر مستشفيا لكنه لم يمكث الا قليلا حتى توفي ودفن فيها سنة ١٩٠٧ . وكان من سوء الحظ ان مجموعته الشعرية فقدت عند احد اقاربه ولم تنشر ، فكان راى بعين الغيب الى حاله حين قال :

جار الزمان وصرت يا نفسي تتقلبين تقلب الطفس
طورا على امل واونة في الياس او أشقى من الياس
اين السرور واين ما عهدته فيك ربات الهوى امس
ازهرت في دنيا فانية بالحزن والاتشاء والترس
عودي الى الماضي فقد عبثت لما عبثت معاهد الانس
عودي فقد صيرتي طعمة للحب للاشعار ......
او لا فكوني كيف شئت وما شئت فافعليه فليس من باس
لا خير في من ليس ذا ثقة من نفسه اسمعت يا نفسي

ولد سليم والابتسامة على شفتيه كذلك ولد والشعر ملء جوانحه وكم ظلموه وكم انتحلوا من روائعه، حتى الزجلية منها .

لكثرة تسهد سليم مع الجمال جعل حياته كلها محارق على دروبه وتكون وفاته ، هي الروعة الكبرى . فانه تجدى المرض على ابعد ما في التحدي ؛ فعندما إخبره اطباؤه في المهجر بشدة دائه وانه قد لا يسمح له بالوصول الى اليابسة في عودته الى الوطن ، ركب البحر وتحدى النصح ولما وصل بريطانيا هتف بالنصر :

حل ارض بريطانيا بالسلامة وهو يهدي المهاجرين سلامه
شاعر تعرفونه من قوافيه فلا حاجة لوضع العمامه

من بريطانيا اكمل طريقه الى مصر وحل في مصح حلوان للامراض الصدرية ، وقد وقعت على مفكرته الخاصة ؛ التي وجدت على فراشه ساعة الوفاة فاذا فيها ذكريات كلها تحد للمرض وفيها زجل وفيها شعر ، وتصاميم قصائد ، وتكون قصيدة الحبيب من اروعها ،

اجواء وآفاق

تعالي نقطع الاجواء فوق جناح اشواق
تهدهدنا
وحلم طائر فوق الدجى يسري
يسابقنا
وهذا الكون ، هذا البحر ، هذا الليل
في يدنا
واضواء تغامزنا ، تعابثنا

وهذا السحر يطوينا ، يدغدغنا ، يخدرنا
ويسكب هدهدات اليوم في امس بلا امس
وفي غدنا
ليصبح لحظة مغروسة في عمقنا الثاوي
تكرس بدء هذا العالم النشوان
منذ الخلق
تسيره
تسجل عمر هذا الكون
عبر مساره الابدي
تمضي في نهايته
لنفنى في ذواياه

ويبقى في جوانحنا

تعالي نذرع الافاق
نقفز عبر قمتها
الى المجهول حيث البدء يغرق في نهايته
وحيث اللانهايات التي تعدو
وتعدو فوق امواج
تكسرها شواطئ حلمنا الساجي
على دفء من الآمال يغمرنا
تطهر جرحي المدفون ، تغسله وتبرئه
وتمسح حزن آماد من الاقفار
ترويها وتحييها
وترسل عطرها المحموم يسعى في جوانبنا
ليبعثنا
ايا دنياي كيف رايت عطرا لا نهائيا
يهدهدنا ليبعثنا

جامعة الاسكندرية — لطفي عبد الوهاب يحيى

فانها كما وصفها صلاح لبكي في كتابه لبنان الشاعر ، رائدة الشعر الرومنطيقي في شرقنا :

بي من خلقتها ولدا تحمل الابواق والزردا
ابدا
مر عهد واتى عهد واستوى واعتدل القد
وقليلا برز ..... وكذا وجنتها ورد
وندى
حقق الدهر بها ظني وغدت كالبدر في السن
بقوام فاضح الغصن يكتي من كامل الحسن
بردا
كنت قبلا حين القاها لا اني اتشق رباها
فلماذا صرت اخشاها والافي عند مراها
كمدا
ان يبنت فارقني حسي او مضت اسلمت لليأس
او دنت اعلنت عن نفسي ودمي حالا الى راسي
صعدا

هؤلاء فتيان الادب في غرة القرن العشرين صرفوا اعمارهم على تهاليل تحلو على الشفاه ؛ اما بقاؤهم معنا فمن الروائع التي كلما افتقد العالم ذاته وجد هذا الذات موشوما عليها ، فانهم لم يتركوا ضربا من ضروب الحياة الا جاؤه ، كذلك كانوا في ادبهم ايضا : فلما سالوا على الشفاه وغنوا الجمال ، كانوا على فلسفة الحياة : وهذا سليم الشاب يخاطب آماله وامانيه :

خابت امانيك يا اشيب	وضاع منك الزمن الاطيب
فلن ترى غير الاسى سلوة	ومن ضروب الحزن ما يعذب
اقل من الدهر ما تشتهي	واعجز الايام ما تطلب
وانفس الاحرار تمضي ولا	تنيلها الاقدار ما ترغب
ما زلت للحكمة تسعى ولم	تنفك في تطلابها تتعب
وتلك كالحسناء من شانها	تحبب الناس ولا تقرب
ولو رايت الشيخ محدودبا	دبا الى تربته يقرب
سمعته يهمس في نفسه	خابت امانيك يا اشيب

يقول امين الريحاني في كتابه « قلب لبنان » :

« .. اذكر من الشعراء سليم بن بولس جبور عازار ؛ الذي حمل عبء العبقرية الى الولايات الاميركية المتحدة في فجر الجيل ، ثم عاد الى مصر ، فاراحه الله هناك ؛ نقل سبحانه وتعالى سليما الى جواره وهو في ربيع الشباب ليغرد في تفص الفردوس » .

فوزي سابا



فوزي عطوي

العباس بن الاحنف
ارق شعراء الغزل العربي

بقلم فوزي عطوي

★★★

روى ابو الفرج الاصفهاني ، في كتاب « الاغاني » ان ابراهيم الموصلي مات سنة ثمان وثمانين ومائة ، ومات في ذلك اليوم : الكسائي النحوي ، والعباس بن الاحنف الشاعر ، وهشيمة الخمارة ، فرفع ذلك الى الرشيد ، فامر ابنه المأمون ان يصلي عليهم : فخرج ، فصفوا بين يديه : فقال: من هذا الاول ؟

قيل : — ابراهيم

فقال : — أخروه ، وقدموا العباس بن الاحنف .

بقدم ، فصلى عليهم . فلما فرغ وانصرف : دنا منه هاشم بن عبد الله بن مالك الخزاعي ، فقال : — يا سيدي كيف آثرت العباس بالتقدمة على من حضر ؟

قال : لقوله :

وسعى بها ناس ، فقالوا انها ... لهي التي تشقى بـه ، وتكابـر
فجحدتهم ، ليكون غيرك ظنهم ... اني ليعجبني المحب الجاحد

ثم قال له : اتحفظها ؟

قال : نعم .

فقال : انشدني باقيها .

فانشده :

لما رايت الليل سد طريقه ... عني ، وعلبني الظلام الراكد
والنجم في كبد السماء ، كانه ... اعمى تحير ، ما لديه قائد

ناديت من طرد الرقاد بصده ... عمن اعالج ، وهو خلو هاجد
يا ذا الذي صدع الفؤاد بهجره ... انت البلاء : طريفه والتالد
القيت بين جفون عيني حرقة ... فالى متى انا ساهر يا راقد ؟

ومنها قوله :

والله لو ان القلوب كقلبها ... ما رق للولد الصغير الوالد

فقال المأمون : — أليس من قال هذا الشعر حقيقا بالتقدمة ؟

فقلت : — بلى ؛ والله ، يا سيدي !

★★★

هذه الحادثة واشباهها ، منبثة بكثرة في « الاغاني » وفي غيره من كتب الادب التي اوردنا ثبتا بها في اخر هذه الدراسة ، وهي تدل على عفة المعاني الوجدانية التي روج لها الشاعر ، فلم يتبذل ، ولم يترخص ؛ ولم يضعف شعره رغم انه نظم اكثر ما نظم في الغزل والنسيب ، حتى لقد صح قول مصعب الزبيري : « العباس بن الاحنف ، وعمرو العراف ما ابتذلا شعرهما في رغيبة ولا رهبة ، ولكن فيما احباه ، فلزما فنا واحدا لو لزمه غيرهما ممن يكثر اكثارهما ، لضعف فيه » .

من هو العباس ؟

فمن هو صاحب الترجمة ، العباس بن الاحنف ؟

ليس في المراجع التي بين ايدينا ما يحدد تاريخا دقيقا لولادة الشاعر . اما وفاته فكانت ، على ما رأينا لدى الاصفهاني ، عام ١٨٨ هـ . وقيل ١٩٢ هـ (١) .

ونعرف عنه ، بعد هذا ، انه عربي يمامي من بني حنيفة : كان آباؤه ينزلون في خراسان ، واتصلوا بالعباسيين ؛ ولمع منهم عمه حاجب ، اذ انتظم بين رجال الدولة ، ومنشأ العباس ومرباه ببغداد ، ويظهر انه نشأ في نعمة وثراء ، جعلاه ينصرف عن شعر المديح الذي كان يجذب اليه عامة الشعراء طلبا للنوال والعطاء ، على ما يذهب اليه الدكتور شوقي ضيف ، وهو يضيف الى ذلك ان العباس اخذ يعيش حياة مترفة ، يختلط فيها بالشعراء ، من امثال ابي نواس وغير ابي نواس ، ولكن دون ان يتردى في خلاعتهم ومجونهم ، وقد يحضر مجالس الانس والشراب ، ولكن دون تعمق ودون اثم .

ويبدو ان اشتهار العباس بن الاحنف بالغزل فتح امامه باب قصر الخليفة هارون الرشيد ، فاصبح من ندمائه ؛ وقد صحبه في غزواته بأرمينية واذربيجان ؛ وغدا رسول الخير والحب بين الخليفة ومن يغاضب من جواريه ، فاذا به ينظم ابياتا يغنيها ابراهيم الموصلي ، فتعود المياه الى مجاريها بين الرشيد ومن غاضبته او ادلت عليه من جواريه الحسان .

كان شاعرا عظيما

ولقد نحاول استجماع ما قاله العباس بن الاحنف ، في مختلف معاني الحب الانساني النبيل ، فيطول بنا الحديث ، ونحب ان الايماء الى معالم هذا الشعر

الغزلي الرائع يغني عن الاطالة ، وان ذكر اقوال كبار الشعراء فيه لمما يؤكد لنا القيمة الفنية العالية التي احتلها هذا الشاعر في تاريخ الادب العربي . وان كانت شهرته بقيت محصورة في اذهان الخاصة من الدارسين المتادبين .

يقول عبد الله بن المعتز : لو قيل ما احسن شيء تعرفه ؛ لقلت : شعر العباس بن الاحنف .

قد سحب الناس اذيال الظنون بنا   وفرق الناس فينا قولهم فرقا
فكاذب قد رمى بالحب غيركم   وصادق ليس يدري انه صدقا

ويقول ابراهيم بن العباس : ما رايت كلاما محدثا اجزل في رقة ، ولا اصعب في سهولة ، ولا ابلغ في ايجاز ، من قول العباس بن الاحنف ؟

تعالي نجدد دارس العهد بيننا   كلانا على طول الجفاء ملوم

اما ابو العتاهية ، فكان يقول : ما حسدت احدا الا العباس بن الاحنف في قوله :

إذا امتنع القريب فلم تنله   على قرب ، فذاك هو البعيد

فاني كنت اولى به منه : وهو بشعري اشبه منه بشعره .

واما الكندي ، فكان يقول : العباس بن الاحنف مليح ظريف حكيم جزل في شعره : وكان قليلا ما يرضيني الشعر ، فكان ينشد له كثيرا :

الا تعجبون ، كما اعجب   حبيب يسيء ولا يعتب
وابغي رضاه على سخطه   فيابى علي ، ويستصعب
فيا ليت حظي اذا ما اساءت   انك ترضى ولا تغضب

ومثله قول عبد الله بن العباس بن الفضل : ما اعرف في العراق احسن من قول ابن الاحنف :

سبحان رب العلا ، ما كان اغفلني   عما رمتني به الايام والزمن
من لم يذق فرقة الاحباب ثم يرى   آثارهم بعدهم ، لم يدر ما الحزن

شعره ، مجرى الامثال

ولقد انعقد شبه اتفاق بين الشعراء والمؤرخين على ان غزل العباس بن الاحنف كان : الى تعدد موضوعاته ، يمتاز بهذه الاولوية التي تسلس له قياد التفوق . ويورد ابو منصور الثعالبي في « الاعجاز والايجاز » قولا عن العباس بن الاحنف ؛ يرى فيه ان مما يجري مجرى المثل من غرر شعره ، قوله :

تزودكم ، لا تكافيكم بجفوتكم   ان المحب اذا لم يستزر زارا
يقرب الشوق دارا وهي نازحة   من عالج الشوق ، لم يستبعد الدارا

ومن معانيه المستحسنة قوله :

ابكي ، ومثلي بكى ، من حب جارية   لم يخلق الله لي في قلبها لينا
هل تذكرين وقوفي عند بابكم   نصف النهار ، واهل الدار لاهونا

ويبدو ان البكاء لغة يلذ للشعراء المتيمين ان يتحدثوا بها . فمن لطيف اشعار العباس بن الاحنف في البكاء لفراق الاحبة ، قوله :

بكيت ، نعم بكيت ، وكل الف   اذا بانت قرينته بكاها
وما فارقت لبنى عن تقال   ولكن شقوة بلغت مداها

ومن الاصوات الجميلة التي كانت تروق هارون الرشيد ، صوت ابن جامع في قول العباس بن الاحنف حول البكاء :

الحب اول ما يكون لجاجة   تاتي به وتسوقه الاقدار
حتى اذا سلك الفتى لجج الهوى   جاءت امور لا تطاق كبار
نزف البكاء دموع عينك فاستعر   عينا لغيرك ، دمعها مدرار
من ذا يعيرك عينه تبكي بها   ارايت عينا للبكاء لا تعار

ويروى ان بشارا لما روى هذين البيتين الاخيرين اردف يقول : « لحق والله ، هذا الفتى بالمحسنين ، وما زال يدخل نفسه معنا ، ونحن نخرجه ، حتى قال هذا الشعر » .

وغنى سليم بن سلام الكوفي ، يوما ، بين يدي الرشيد ثلاثة اصوات من الهزج ، ومنها صوت في قول العباس بن الاحنف :

مت على من غبت عنه اسفا   لست منه بمصيب خلفا
لن ترى قرة عين ابدا   او ترى نحوهم منصرفا
قلت ، لما شفني وجدي بهم   حسبي الله لما بي ، وكفى
بين الدمع لمن ابصرني   ما تضمنت ، اذا ما ذرفا

فاستحسنها الرشيد ، وامر له بثلاثين الف درهم ، وقال : « لو كنت الحكم الوادي (وهو المتفرد بالهزج) ما زدت على هذا الاحسان في اهزاجك ! »

عيون .. ودموع

ويستمر العباس ، مولعا بالحديث عن المدامع والعيون ، فيعبر عن قدرة اللسان على كتمان سر الحب ، فيما لا تستطيع العين ان تكتم من امر سره شيئا :

لا جزى الله دمع عيني خيرا   وجزى الله كل خير لساني
نم دمعي ، فليس يكتم شيئا   ورايت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب ، اخفاه طي   فاستدلوا عليه بالعنوان

ويقال ان الحرمازي ، بعدما انشد هذا القول ، علق عليه قائلا : « والله هذا طراز يطلب الشعراء مثله ؛ فلا يقدرون عليه » .

ومن شعره ، في هذا المجال ، كلام غناه الواثق ، وكان اعلم الخلفاء بالغناء ، واحلق من غنى بضرب العود ؛ يقول العباس فيه :

يفرح الناس بالسماع وابكي   انا حزنا ، اذا سمعت السماعا
ولها في الفؤاد صدع مقيم   مثل صدع الزجاج ، اعيا الصناعا

ويؤكد العباس بن الاحنف رقة العين ، وضعفها عن كتم اسرار الهوى ، كما يؤكد حرصه على عدم انتشار حديث الحبيب بين الناس ، فيقول :

هبوني اغض اذا ما بدت   واملك طرفي ، فما انظر
فكيف احتيالي ، اذا ما الدموع   نطقن ، فبحن بما اضمر
ايا من سروري به شقوة   ومن صفو عيشي به اكدر
امني تخاف انتشار الحديث   وحظي في ستره اوفر
ولو لم اصنه ، لبقيا عليك   نظرت لنفسي كما تنظر

لكنه سرعان ما يعود ، فيعترف بان اللسان ليس اقل معاناة من العين ، في حمل تباريح الهوى الغلاب ، فاذا هو استطاع ان يتكتم على الحب اكثر من العين ؛ فان متاعب السر تؤول باللسان ، آجلا او عاجلا الى البوح به ، والتحلل من متاعبه :

لعمرك ما يتربع المحب   حتى يبوح باسراره
فقد يكتم المرء اسراره   فتظهر في بعض اشعاره

ذلك ان الحب اقوى من القلب : ومن اللسان والعين ، فهو يقهر الحبيب ؛ ولو كان لبيبا اريبا ؛ وينطقه مكرها ، بخبايا نفسه :

الحب املك للفؤاد بقهره من ان يرى للستر فيه نصيب
واذا بدا سر اللبيب ، فانه لم يبد الا والفتى مغلوب

ورغم كل هذا : فالعباس بن الاحنف حريص على من يحب : يحتال الحيل لصرف انظار الناس عنها ؛ لئلا يلوكوا سمعتها وسمعته ، ويتقولوا عليهما الاقوال والتخرصات :

اريدك بالسلام فاتقيهم فاعمد بالسلام الى سواك
واكثر فيهم ضحكي ليخفى فسني ضاحك ، والقلب باك

ذلك ان ما يتيسر لغيره من الاحبة ، عسير عليه مناله ، فلا يبقى له الا ان يمني نفسه الامنيات :

تمنى رجال ما احبوا وانما تمنيت ان اشكو اليك وتسمعا
ارى كل معشوقين غيري ، وغيرها قد استعذبا طول الهوى وتمتعا

رسول الخير بين المحبين

وقد بلغ من رقة شعر العباس بن الاحنف وجودته: ان الخلفاء والوزراء كانوا يتمثلون به ويروونه ، وان شعره غالبا ما كان وساطة خير بين المحبين منهم ، اذا دبت الى علاقاتهم بمحبوباتهم اسباب من الجفوة او الملالة .

يروي الاصفهاني ان عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع جاء الى الحسن بن وهب ، وعنده « بنان » جارية محمد بن حماد ، وهي نائمة سكرى ، وهو يبكي عندها ، قال له : ما لك ؟

قال : ـ قد كنت نائما ، فجاءتني ، فانبهتني : وقالت : « اجلس حتى تشرب » ، فجلست ، فوالله ما غنت عشرة اصوات حتى نامت ؛ وما شربت الا قليلا ، فذكرت قول اشعر الناس ، واظرفهم ، العباس بن الاحنف:

ابكي الذين اذاقوني مودتهم حتى اذا ايقظوني للهوى ، رقدوا

فانا ابكي وانشد هذا البيت !!

وروى ان عليا بن هشام كلم « متيما » ، فاجابته جوابا ، ولم يرضه ؛ فدفع يده في صدرها ، فغضبت ونهضت ، فتثاقلت عن الخروج اليه ، فكتب اليها :

فليت يدي بانت غداة مددتها اليك ، ولم ترجع بكف وساعد
فان يرجع الرحمن ما كان بيننا فلست الى يوم التنادي بعائد

عتبت عليه مرة ؛ فتمادى عتبها : وترضاها فلم ترض ، وقال : الادلال يدعو الى الاملال : ورب هجر دعا الى صبر ، وانما سمي القلب قلبا لتقلبه . ولقد صدق العباس بن الاحنف حيث يقول :

ما اراني الا ساهجر من ليس يراني اقوى على الهجران
قد حدا بي الى الجفاء وفائي ما اضر الوفاء بالانسان

واخبر الصولي الاصفهاني ان حمادا بن اسحق روى عن ابيه ؛ قال : غضب الفضل بن الربيع على جارية له : كانت احب الناس اليه ، فتاخرت عن استرضائه ، فغمه ذلك ، فوجه الى ابي يعلمه ويشكوها اليه ، فكتب اليه ابي : لك العزة والشرف ؛ ولاعدائك الذل والرغم .

استعمل قول العباس بن الاحنف :

تحمل عظيم الذنب ممن تحبه وان كنت مظلوما ، فقل: انا ظالم
فانك الا تغفر الذنب في الهوى يفارقك من تهوى وانفك راغم

فقال : « صدقت » . وبعث اليها ، فترضاها .

وقيل ان شرا وقع بين « عريب » ، وبين محمد بن حامد ؛ وكان يجد بها الوجد كله ؛ فكادا يخرجان من شرهما الى القطيعة ؛ وكان في قلبها منه اكثر مما في قلبه منها ، فلقيته يوما ، فقالت له :

كيف قلبك ، يا محمد ؟

قال : اشقى - والله ، ما كان واقرحه .

فقالت : استبدل بديلا .

فقال لها : لو كانت البلوى بالخيار لفعلت .

فقالت : لقد طال اذن تعبك .

فقال : وما يكون ؟ اصبر مكرها . اما سمعت قول العباس بن الاحنف :

تعب يكون مع الرجاء بذي الهوى . خير له من راحة في الياس
لولا كرامتكم ، لما عاتبتكم ولكنتم عندي كبعض الناس

فذرفت عيناها ، واعتذرت اليه ، واعتبته ، واصطلحا ، وعادا الى افضل مما كانا عليه !

الرشيد .. وقصائد العباس

وكان لهارون الرشيد جارية تعرف باسم « ذات الخال » : فلعته يوما ، فوعدها ان يصير اليها ، وخرج يريدها ؛ فاعترضته جارية ، فسالته ان يدخل اليها ، فدخل واقام عندها ، فشق ذلك على « ذات الخال » ، وقالت : « والله لاطلبن له شيئا اغيظه به » .

وكانت ذات الخال احسن الناس وجها ، ولها خال على خدها ، فلم ير الناس احسن منه في موضعه ، فدعت بمقراض ، فقصت الخال الذي كان في خدها .

وبلغ ذلك الرشيد ، فشق عليه ، وبلغ منه ، فخرج من موضعه ، وقال لوزيره الفضل بن الربيع :

ـ انظر من بالباب من الشعراء ؟

فقال الفضل : الساعة ، رايت العباس بن الاحنف .

فقال : ادخله .

فادخله ، فعرفه الرشيد الخبر ، وقال : « اعمل في هذا شيئا » على معنى رسمه له ؛ فقال :

تخلصت ممن لم يكن ذا حفيظة وملت الى من لا يغير حال
فان كان قطع الخال لما تعطفت على غيرها نفسي، فقد ظلم الخال

فنهض الرشيد الى « ذات الخال » ؛ مسرعا ، مسترضيا لها ؛ وجعل هذين البيتين سببا ، وامر للعباس بالفي دينار ، وامر ابراهيم الموصلي ؛ فغناه في هذا الشعر .

وفي «ذات الخال» يقول العباس بن الاحنف شعرا يغنيه ابراهيم الموصلي ايضا :

الا ليت«ذات الخال» تلقى من الهوى عشير الذي القى فيلتئم الحب
وصالكم صد ، وقربكم قلى وعطفكم سخط وسلمكم حرب

كما روى ان الرشيد غضب على ام جعفر ؛ ثم

ترضاها ، فبت ان ترضى ، فارق ليله . ثم قال : « افرشوا لي على دجله » ؛ ففعلوا . فقعد ينظر الى الماء ، وقد رأى زيادة عجيبة ، فسمع غناء في هذا الشعر :

جرى السيل فاستبكاني السيل اذجرى   وفاضت له من مقلتي غروب
وما ذاك الا حين خبرت انه   يمر بواد انت منه قريب
يكون اجاجا ماؤه ، فاذا انتهى   اليكم ، تلقى طيبكم ، فيطيب
فيا ساكني شرقي دجلة ، كلكم   الى القلب، من اجل الحبيب حبيب

فسأل عن الناحية التي فيها الغناء ؛ فقيل له : دار ابن المسيب . فبعث اليه ان ابعث بالمغني ، فاذا هو الزبير بن دحمان . فسأله عن الشعر ؛ فقال : « هو للعباس بن الاحنف » ، فأحضر واستنشده ، فأنشده اياه وجعل الزبير يغنيه ، والعباس ينشده ، وهو يستعيدهما حتى اصبح ، فقام فدخل الى ام جعفر ، فسألت عن سبب دخوله ، فعرفته ، فوجهت الى العباس بالف دينار والى الزبير بالف دينار اخرى !!

ومما يروى عن هارون الرشيد ايضا انه هجر « مارية » ، وقيل « ماردة » ام ابنه المعتصم ، لكنه كاد يموت من شدة حبه لها وشوقه اليها ، الا انه استكبر ان يبادئها بالصلح ، واستكبرت أن تصالحه بدورها ، لانه هو الذي بدأ بالهجران . وفيما كل منهما يكابد الشوق للاخر ، علم وزير الرشيد الفضل بن الربيع ، « وقيل يحي بن خالد البرمكي » ، فطلب الوزير العباس بن الاحنف وقال له : « ان « مارية » هي الغالبة على امير المؤمنين ، وانه جرى بينهما عتب ، فهي بعزة دالة المعشوق تابى ان تعتذر ، وهو بعزة الخلافة وشرف الملك والبيت يابى ذلك ؛ وقد رمت الامر من قبلهما فاعياني ، وهو احرى ان تستفزه الصبابة ، فقل شعرا تسهل به عليه هذه القضية » ، واعطاه دواة وقرطاسا ، فطلبه الرشيد ، فتوجه اليه ونظم العباس قوله :

العاشقان كلاهما متجنب   وكلاهما متعتب متغضب
صدت مهاجرة ، وصد مهاجرا   وكلاهما ، مما يعالج متعب
راجع احبتك الذين هجرتهم   ان المتيم قلما يتجنب
ان التجنب ، ان تطاول منهما   دب السلو له ، وعز المطلب

ثم قال العباس بن الاحنف لاحد الرسل : « ابلغ الوزير اني قد قلت اربعة ابيات ، فان كان فيها مقنع ، وجهت بها اليه » . فعاد الرسول وقال : « هاتها ، ففي اقل منها مقنع » . فكتب الابيات ، وكتب تحتها ايضا :

لا بد للعاشق من وقفة   تكون بين الوصل والصرم
يعتب احيانا ، وفي عتبه   اظهار ما يخفي من السقم
اشفاقه داع الى ظنه   وظنه داع الى الظلم
حتى اذا الهجر تمادى به   راجع من يهوى على الرغم

فدفع الوزير الرقعة الى الرشيد ، فقال : « والله ما رايت شعرا اشبه بما نحن فيه من هذا الشعر . والله لكاني قصدت بهذا ! » .

فقال : والله ، يا امير المؤمنين ، وانت المقصود به .

فقال الرشيد : « يا غلام ! هات نعلي ، فانني اراجعها على رغم » . فنهض ، واذهله السرور أن يامر للعباس بشيء .

ثم ان « مارية » لما علمت بمجيء الرشيد اليها : تلقته وقالت : « كيف ذلك ، يا امير المؤمنين ! » فأعطاها الشعر ؛ وقال : « هذا الذي جاء بي اليك » .

قالت : « فمن قاله » ؟

قال : « العباس بن الاحنف » .

قالت : « فيم كوفيء ؟ »

قال : « ما فعلت بعد شيئا » .

فقالت : « والله لا اجلس حتى يكافأ » .

فامر له بمال كثير ، وأمرت له هي بدون ذلك ؛ وامر له يحي بدون ما امرت به ، وحمل على برذونه . ثم قال له الوزير : « تمام النعمة ، عندك ، ان لا تخرج من الدار حتى تؤثل لك بهذا المال ضيعة » . فاشترى له ضياعا بجملة من ذلك المال ، ودفع اليه بقيته .

وقيل انه كان للرشيد ثلاث جوار استأثرن بحبه ، وفيهن يقول الخليفة نفسه :

ان سحرا وضياء وختث   هن سحر وضياء وختث
اخذت سحر ، ولا ذنب لها   ثلثي قلبي ، وترباها الثلث

ويذكر الاصفهاني ان العباس بن الاحنف قال عن لسان الرشيد ، في هؤلاء الجواري :

ملك الثلاث الانسات عناني   وحللن من قلبي بكل مكان
ما ذاك الا ان سلطان الهوى   وبه قوين ، اعز من سلطاني

لكننا نميل الى القول القائل بان الابيات هي من نظم الرشيد ذاته ؛ لا سيما وان له شعرا بهذا النفس : وفي هذا المعنى ، ومنه :

ثلاث قد حللن حمى فؤادي   ويعطين الرغائب في ودادي
نظمت قلوبهن بخيط قلبي   فهن قرابتي حتى التنادي
فمن يك حل من قلبي محلا   فهن من النواظر والسواد

العباس بن الاحنف والخليفة الواثق

فاذا انتقلنا الى الخليفة الواثق ، عرفنا من اخباره ومن تمثله بشعر العباس بن الاحنف ، الشيء الكثير : روى احمد بن حمدون ؛ قال : كان بين الواثق وبين بعض جواريه شر ، فخرج كسلان : فلم ازل انا والفتح بن خاقان نحتال لنشاطه ، فرآني اضاحك الفتح : فقال : قاتل الله ابن الاحنف حيث يقول :

عدل من الله ابكاني واضحكها   فالحمد لله ، عدل كل ما صنعا
اليوم ابكي على قلبي واندبه   قلب الح عليه الحب فانصدعا

فقال الفتح : انت والله ، يا امير المؤمنين في وضع التمثل موضعه ، اشعر منه ، واعلم ، واظرف !

ومن اخبار الواثق ايضا ان جارية له ، كان يهواها ، وقد جرى بينهما عتب : « ان كنت تستطيل بعز الخلافة ، فانا ادل بعز الحب . اتراك لم تسمع بخليفة عشق قبلك قط ، فاستوفى من معشوقه حقه ؟ ولكني لا ارى لي نظيرا في طاعتك » . فقال الواثق : لله در ابن الاحنف حيث يقول:

اما تحسبيني ارى العاشقين   بلى ، ثم لست ارى لي نظيرا

لعل الذي بيديه الامور ... سيجعل في الكره خيرا كثيرا

وكان الواثق ، كما يتضح ، يؤثر شعر ابن الاحنف على كل شعر عداه ، فمن انبائه ما حدث به محمد بن عمرو الرومي ، اذ قال : كنا عند الواثق . فقال « اريد ان اصنع لحنا في شعر معناه ان الانسان كائنا من كان ، لا يقدر على الاحتراس من عدوه . فهل تعرفون في هذا شيئا ؟ »

فانشدنا ضروبا من الاشعار ، فقال : ما جئتم بشيء مثل قول العباس بن الاحنف :

قلبي الى ما ضرني داع ... يكثر اسقامي واوجاعي
كيف احتراسي من عدوي اذا ... كان عدوي بين اضلاعي ؟
اسلمني الحب لاشياعي ، ... لما سعى بي عندها الساعي
لقلما ابقى على كل ذا ... يوشك ان ينعاني الناعي

قال : فعمل فيه الواثق لحنه الثقيل ، النشيد الاول ، بالوسطى !

الشاعر والخليفة المتوكل

وتنتقل عدوى محبة شعر العباس بن الاحنف الى الخليفة المتوكل الذي يجهد نفسه ، فيما يروى ، في تقليد شعر العباس ، وفي تقليد لحن الواثق ، فلا يستطيع الى شيء من ذلك سبيلا . يقول علي بن الجهم : « انصرفت ليلة من عند المتوكل ، فلما دخلت منزلي ، جاءني رسوله يطلبني ، فراعني ذلك ، وقلت : « بلاء تتبعت به بعد انصرافي » . فرجعت اليه وجلا ، فادخلت عليه وهو في مرقده ، فلما رآني ضحك ، فأيقنت بالسلامة . فقال : « يا علي ! انا مذ فارقتك ساهر ، فخطر على قلبي هذا الذي يغني فيه اخي (الواثق) قول الشاعر (ابن الاحنف) « قلبي الى ما ضرني داع » ، فحرصت ان اعمل مثل هذا ، فلم يجئني ، او ان اعمل مثل اللحن فما امكنني ، فوجدت في نفسي نقصا . فقلت : « يا سيدي ، كان اخوك خليفة يغني ، وانت خليفة لا تغني » . فقال : « قد والله اهديت الى عيني نوما . اعطوه الف دينار » فاخذتها وانصرفت !

واذا كنا ، الى الان ، لم نعمد الى التعليق الا لماما على ما نروي من احداث الخلفاء والشعراء ، فان قصة المتوكل ، هذه ، تشير الى اي مدى تمكن حب الفن الشعري والغنائي من نفوس الخلفاء ، حتى لقد اصبح شعور بعضهم بالنقص في نفسه ، يرجع الى عجزه عن نظم الشعر : او تلحين القصائد ، اكثر من عجزه عن سياسة امور الناس . الا ، ما اعظم هموم امثال اولئك الخلفاء !!

التشنيع على الشعر

ويبدو ان التشنيع على الشعر ليس اختراعا جديدا عند الناس . فقد كان بعضهم يشنع على الشعراء ويحاول الانتقاص من معانيهم ، كمثل ما فعل ابو الحرث حميد ، عندما روى ابيات العباس بن الاحنف السالفة الذكر .

فقد ورد في كتاب الشاهيني ان ابا الحرث حميد انشد قول العباس بن الاحنف : « قلبي الى ما ضرني داع » ، فبكى ، ثم قال : هذا شعر رجل جائع في جارية طباخة مليحة .

فقيل له : من اين قلت ذاك ؟

قال : لانه بدأ فقال :

قلبي الى ما ضرني داع ... يكثر اسقامي واوجاعي

وكذلك الانسان ، يدعوه قلبه وشهوته الى ما ضره من الطعام والشراب . فيأكله ، فتكثر علله واوجاعه ، وهذا تعريض . ثم صرح فقال :

كيف احتراسي من عدوي اذا ... كان عدوي بين اضلاعي

وليس للانسان عدو بين اضلاعه الا معدته ، فهي تتلف ماله ، وهي سبب اسقامه ، وهي مفتاح كل بلاء عليه . ثم قال :

ان دام لي هجرك يا مالكي ... اوشك ان ينعاني الناعي

فعلمت ان الطباخة كانت صديقته ، وانها هجرته ، ففقدها وفقد الطعام ، فلو دام ذلك عليه ، لمات جوعا ، ونعاه الناعي :

ونلاحظ على هذه الرواية اختلاف البيت الاخير .

ففي رواية محمد بن عمرو الرومي :

لقلما ابقى على كل ذا ... يوشك ان ينعاني الناعي

واما في كتاب الشاهيني ، فقد ورد البيت كما يلي :

ان دام لي هجرك يا مالكي ... اوشك ان ينعاني الناعي

وللعباس بن الاحنف ابيات عينية اخرى ، من هذا القبيل ، يقول فيها :

بكت عيني لانواع ... من الحزن ، واوجاع
واني كل يوم عندكم ... يحظى بي الساعي
اعيش الدهر ان عشت ... بقلب منك مرتاع
وان حل بي البعد ... سينعاني لك الناعي

وهذه الابيات ، على ما يروي محمد بن عبدالله التميمي قد اجيز مخارق المغني على غنائها بمئة الف درهم . فقد قال : كنا في مجلس ابن الاعرابي ، اذ اقبل رجل من ولد سعيد بن سالم ، كان يلزم ابن الاعرابي ، وكان يحبه ويانس به ، فقال له : ما اخرك عني ؟

فاعتذر باشياء ، ثم قال : كنت مع مخارق ، عند بعض بني الرشيد ، فوهب له مائة الف درهم على صوت غناه به ، فاستكثر ذلك ابن الاعرابي واستهاله ، وعجب منه ، وقال : ما هو ؟

قال : غناه بشعر عباس بن الاحنف :

بكت عيني لانواع ... من الحزن ، واوجاع

فقال ابن الاعرابي « اما الغناء فما ادري ما هو ، ولكن هذا ، والله ، كلام قريب مليح » .

العباس بن الاحنف وملهمته « فوز »

ومما حدث به الصولي (٢) ان احمد بن ابراهيم قال رايت سلمة بن عاصم ، ومعه شعر العباس بن الاحنف ، فعجبت منه ، وقلت : « مثلك ، اعزك الله ، يحمل هذا ؟ »

فقال : الا احمل شعر من يقول :

اسات ان أحسنت ظني بكم   والحزم سوء الظن بالناس
يقلقني الشوق ، فآتيكم   والقلب مملوء من الياس

ومطلع هذا الشعر، قول العباس في «فوز» الجارية :

يا فوز ، يا هيبة عباس   واحربا من قلبك القاسي

ومتى ذكرنا قول العباس بن الاحنف :

الحب اول ما يكون لجاجة   تاتي به وتسوقه الاقدار
حتى اذا سلك الفتى لجج الهوى   جاءت امور لا تطاق ، كبار

امكننا فهم العلاقةالعاطفية التي ربطته بفوزالجارية، والتي كانت تتارجح بين الرضى والغضب ، وبين اللقاء والفراق .

لقد كانت « فوز » ، هذه ، جارية لمحمد بن المنصور الملقب « فتى العسكر » ، ثم ان بعض شباب البرامكة (وقيل احد امراء البيت العباسي) اشتراها ، فدبرها وحج بها ، وكان العباس بن الاحنف قد علق هواها ، فقال في ذلك :

يا رب رد علينا   من كان انسا وزينا
من لا نسر بعيش   حتى يكون لدينا
يا من اتاح لقلبي   هواه شؤما وحينا
ما زلت مذ غبت عني   من اسخن الناس عينا
ما كان حجك عني   الا بلاء علينا

وكان العباس ، وهو يذكر « فوزا » بهذا الشعر ، يتشبه بابي العتاهية في ذكره « عتبة » . فلما قدمت « فوز » من الحج ، قال العباس بن الاحنف ، متهللا، مرحبا :

الا قد قدمت فوز   فقرت عين عباس
لمن بشرني البشرى   على العينين والراس
ايا ديباجة الحسن   ويا راشنة الاس
يلوموني على الحب   وما بالحب من باس

ويلاحظ على صدر البيت الاخير ان الارتجال والعجلة حملا الشاعر على جزم فعل المضارع ، دون وجود عامل من عوامل الجزم ، وكان الاصح ان يقول : « يلومونني » باثبات نون الوقاية .

وتمادى ، بعد ذلك ، حكاية العباس مع فوز ، وقد روى الاصفهاني تفاصيل كثيرة ، منها ان العباس وجه رسولا الى فوز ، فعاد فاخبره انها تجد صداعا ، وانه رآها معصوبة الراس ، فقال العباس :

عصبت راسها ، فليت صداعا   قد شكته الي ، كان براسي
ثم لا تشتكي ، وكان لها الاجر   وكنت السقام عنها القاسي
ذاك حتى يقول لي من رآني   هكذا يفعل المحب المؤاسي

وبعد ذلك ، برئت فوز من صداعها ، لكنها عادت فنكست من جديد ، فقال :

ان التي هامت بها النفس   عاودها من عارض نكس
كانت اذا ما جاءها المبتلى   ابراه من كفها اللمس
وابابي الوجه المليح الذي   قد عشقته الجن والانس
ان تك الحمى اضرت به   فربما تنكسف الشمس

وبلج بين الشاعر والجارية جفاء لا يرى الشاعر له سببا ، فيكتب الى فوز ، يقول :

اما والذي ابلى المحب وزادني   بلاء ، لقد اسرفت في الظلم والهجر
فان كان حقا ما زعمت ، اتيته   اليك ، فقام النائحات على قبري
وان كان عدوانا علي وباطلا   فلامت حتى تسهري الليل من ذكري(٢)

ولما بلغت أبياته هذه فوزا ، بعثت اليه تقول « اظننا ظلمناك ، يا ابا الفضل : فاستجيب لك فينا . ما زلت البارحة ساهرة ، ذاكرة لك » !

ومن شعره الجيد في « فوز » قوله

يا فوز ما ضر من يمسي وانت له   الا يفوز بدنيا آل عباس
ابصرت شيئا بمولاها ، فواعجبا   منه يراها، ويبدو الشيب في الراس

ومنه ايضا

اذا انت لم تعطفك الا شفاعة   فلا خير في ود يكون بشافع
واقسم ما تركي عتابك عن قلى   ولكن لعلمي انه غير نافع
واني ان لم الزم الصمت طائعا   فلا بد منه مكرها غير طائع

ومن جميل شعره ايضا

وحدثتني، يا سعد، عنهم فزدتني   جنونا ، فزدني من حديثك يا سعد
هواها هوى لم يعرف القلب غيره   فليس له قبل ، وليس له بعد

وبلغ من أعجاب الشعراء بالعباس بن الاحنف انهم كانوا يتمنون لو قالوا بعض ابياته بكل ما قالوه من شعر ، وهذا محمد بن الفضل بن الاسود يروي لنا انه قرا على احمد بن أبي فنن ، شعر العباس بن الاحنف ، وكان مشغوفا به فقال احمد : « وددت ان ابياته التي يقول فيها : « يا فوز ما ضر من يمسي وانت له » لي ، بكل شعري » !

والحبيب مطاع الرغبة عند حبيبه ، وشفاعته مطلقة لا ترد . وقد حدث محمد بن سلام انه كان في خلق العباس بن الاحنف شدة (٤) ، فضرب غلاما له ، وحلف ان يبيعه، فمضى الغلام الى « فوز » فاستشفع بها عليه ، فكتبت اليه ، فقال :

يا من اتانا بالشفاعات   من عند من فيه لجاجاتي
ان كنت مولاه ، فان التي   قد شفعت فيك لمولاتي
ارسالها فيك الينا ، لنا   كرامة فوق الكرامات

وتتوسل « فوز » جارية يقال لها « يمن » لتكون رسولا بينها وبين العباس بن الاحنف ، فمضت يمن الى فوز ، ذات مرة ، وقد طلبت من العباس شيئا ، فمنعها اياه وزعمت انه ارادها ودعاها الى نفسه ، فغضبت فوز من ذلك ، فكتب اليها :

لقد زعمت يمن باني اردتها   على نفسها ، تبا لذلك من فعل
سلوا عن قميصي مثل شاهد يوسف   فان قميصي لم يكن قد من قبل

وتعابث فوز شاعرها وتمازحه ، فلا يطيق عبثها ومزاحها . يقول ابراهيم بن اسماعيل : جاءنا العباس بن الاحنف ، يوما ، وهو كئيب ، فنشطناه ، فابى ان ينشط فقلنا : ما دهاك ؟ فقال : لقيتني «فوز» ، اليوم فقالت لي « يا شيخ » ، وما قالت ذلك الا من حارث ملال . فقلنا له : هون عليك ، فانها امراة لا تثبت على حال ، وما ارادت الا العبث بك ، والمزاح معك .

فقال : اني والله قد قلت اقبح مما قالت . ثم انشدنا :

حزنت ، اذ رأت كئيبا معنى   اقصدته الخطوب ، فهو حزين
حزنت بي ، وقلت ما شئت منها   يا لقوم ! فاينا المغبون

فقلت له : قد انتصفت وزدت !

وما بين الرغبة في الشاعر ، والرغبة عنه ، تتصل حكاية العباس بفوز ، ثم تنتهي الى حيث ينبغي ان ينتهي ترخص امراة ؛ واباء شاعر . فقد روي ان فوزا مالت الى بعض اولاد الجند ؛ وبلغ ذلك العباس فتركها ، ولم ترض هي البديل ، بعد ذلك ، فعادت الى العباس ، وكتبت اليه تعاتبه في جفائه فكتب اليها يقول :

كتبت تلوم وتستريب زيارتي   وتقول : لست لنا كعهد العاهد
فاجبتها ، ودموع عيني جمة   تجري على الخدين غير جوامد
يا فوز لم اهجركم لملالة   مني ، ولا لمقال واش حاسد
لكنني جربتكم فوجدتكم   لا تصبرون على طعام واحد

وقد اتهم العباس بن الاحنف بانه سرق هذه الابيات من ابي نواس ، حيث يقول :

ومظهرة لخلق الله ودا   وتلقى بالتحية والسلام
اتيت فؤادها اشكو اليه   فلم اخلص اليه من الزحام
فيا من ليس يكفيه محب   ولا الفا محب ، كل عام
اظنك من بقية قوم موسى   فهم لا يصبرون على طعام

الهجاء في شعره

لم يعالج العباس بن الاحنف موضوعا رئيسيا في الشعر ، غير الغزل . اما الهجاء ، فلم يعرف له غير بيتين اثنين : قالهما في ابي الهذيل العلاف ، وهما :

يا من يكذب اخبار الرسول ؛ لقد   اخطات في كل ما تاتي وما تذر
كذبت بالقدر الجاري عليك ، فقد   اتاك مني بما لا تشتهي القدر

وسبب هجائه هذا . ان العلاف كان يكن له البغضاء ويصب عليه اللعنة كلما ذكر . يقول حسين بن فهم : سمعت العطوي (٥) (ابا عبد الرحمن) يقول : كان العباس بن الاحنف شاعرا مجيدا غزلا ، وكان ابو الهذيل العلاف يبغضه ، ويلعنه لقوله : . . .

اذا اردت سلوا ، كان ناصركم   قلبي ، وما انا من قلبي بمنتصر
فاكثروا او اقلوا من اساءتكم   فكل ذلك محمول على القدر

قال : فكان ابو الهذيل يلعنه لهذا ويقول : يقصد الكفر والفجور في شعره .

وهكذا ، فقد كان الهجاء الفريد الذي نظمه العباس ، بمثابة رد التحية بمثلها .

الالحنين الى الديار

كما عرف للعباس بن الاحنف اربعة ابيات في الحنين الى الديار . قالها يوم خرج الرشيد ومعه العباس الى خراسان ، وطال مقامه بها ، ثم خرج الى ارمينية ؛ والعباس معه ، ماشيا الى بغداد ؛ فعارضه في طريقه ، فانشده :

قالوا خراسان اقصى ما يراد بنا   ثم القفول ، فقد جئنا خراسانا
ما اقدر الله ان يدني على شحط   سكان دجلة من سكان جيحانا
متى الذي كنت ارجوه وآمله   اما الذي كنت اخشاه ، فقد كانا
عين الزمان اصابتنا ، فلا نظرت   وعذبت بصنوف الهجر الوانا

فقال له الرشيد : « قد اشتقت يا عباس ؛ واذنت لك خاصة » ، وامر له بثلاثين الف درهم .

مداعبته للاصمعي

وكان العباس بن الاحنف يحب مداعبة العلماء ، ولا يتورع عن ذلك حتى امام الخلفاء او الوزراء . فقد اورد الاصفهاني قصة ابن الاحنف مع الاصمعي ، في حضرة الرشيد (٦) : فقال :

دخل الاصمعي على الرشيد . والعباس بن الاحنف عنده ، فقال العباس للرشيد : دعني اعبث بالاصمعي .

فقال له الرشيد : انه ليس ممن يحتمل العبث !

فقال : لست اعبث به عبثا يشق عليه .

قال : انت اعلم !

فلما دخل الاصمعي ؛ قال له : يا ابا سعيد : من الذي يقول :

اذا احببت ان تصنع   شيئا يعجب الناسا
فصور ههنا فوزا   وصور ثم عباسا
فان لم يدنوا حتى   ترى راسيهما راسا
فكذبها بما قاست   وكذبه بما قاسى

فقال له الاصمعي ؛ يعرض بانه نبطي : قاله الذي قال :

اذا احببت ان تبصر   شيئا يعجب الخلقا
فصور ههنا دورا   وصور ههنا فلقا
فان لم يدنوا حتى   ترى خلقيهما خلقا
فكذبها بما لاقت   وكذبه بما يلقى

فخجل العباس بن الاحنف ، وقال له الرشيد : « قد نهيتك ؛ فلم تقبل » .

لكن تلك الدعابة ؛ وهذا التعريض ، لم يمنعا الاصمعي من انصاف العباس بن الاحنف ، عندما سئل : « ما احسن ما تحفظ للمحدثين ؟ » فقد قال : قول العباس بن الاحنف :

لو كنت عاتبة لسكن روعتي   املي رضاك ، وزرت غير مراقب
لكن مللت ، فلم تكن لي حيلة   صد الملول خلاف صد العاتب

وللاصمعي راي اخر في العباس بن الاحنف ، فقد حدث محمد بن القاسم بن مهرويه ، قال : انشدني ابراهيم بن العباس ؛ للعباس بن الاحنف :

قالت ظلوم ، سمية الظلم   ما لي رايتك ناحل الجسم
يا من رمى قلبي ، فاقصده   انت العليم بموضع السهم

فقلت له : ان اباحاتم السجستاني حكى عن الاصمعي انه انشد للعباس بن الاحنف :

اتاذنون لصب في زيارتكم   فعندكم شهوات السمع والبصر
لا يضمر السوء ان طال الجلوس به   عف الضمير ، ولكن فاسق النظر

فقال الاصمعي : « ما زال هذا الفتى يدخل يده في جرابه ، فلا يخرج شيئا ؛ حتى ادخلها فاخرج هذا ؛ ومن ادمن طلب الشيء ؛ ظفر ببعضه »

فقال ابراهيم بن العباس : « انا لا ادري ما قال الاصمعي ، ولكن انشدك للعباس ما لا تدفع انت ولا غيرك فضله » ثم انشدني قوله :

والله لو ان القلوب كقلبها   ما رق للولد الضعيف الوالد

وقوله :

لئن مللت ، فلم تكن لي حيلة   صد الملول خلاف صد العاتب

وقوله :

حتى اذا اقتحم الفتى لجج الهوى   جاءت امور لا تطاق ، كبار

ثم قال : « هذا ، والله . لا يقدر احد على ان يقول مثله ابدا » .

وللبيتين اللذين انشدهما الاصمعي ، حكاية طريفة. فقد حدث ميمون بن هرون ، قال : كنا عند الحسن بن وهب ، فقال لـ « بنان » : غنيني

اتلاثنون لعب في زيارتكم   فعندكم شهوات السمع والبصر

لا يضمر السوء ان طال الجلوس به   عف الضمير ، ولكن فاسق النظر

قال : فضحكت ، ثم قالت : « فاي خير فيه ان كان كذا ؟ » او « اي معنى ؟ »

فخجل الحسن من بادرتها عليه ، وعجبنا من حدة جوابها وفطنتها .

اشعر الناس .. اغزل الناس

ولقد ترددت عبارة « اشعر الناس » و « اغزل الناس » في الاحكام التي اطلقها كثيرون ممن اعجبوا بشعر العباس بن الاحنف . فهذا الزبير يقول : ابن الاحنف اشعر الناس في قوله :

احرم منكم بما اقول ، وقد   نال به العاشقون من عشقوا

صرت كاني ذبالة نصبت   تضيء للناس وهي تحترق

انت لا تعلمين ما الهم والحزن   ولا تعلمين ما الارق ؟

وفي البيتين الاولين ؛ قال الرياشي عن العباس بن الاحنف : « لو لم يقل من الشعر الا هذين البيتين لكفيا» .

وعن ظرفه الشعري؛ كان ابراهيم الموصلي يقول : لقد ظرف ابن الاحنف في قوله ، يصف بعد عهده بالنوم :

قفا خبراني ايها الرجلان   عن النوم ، ان الهجر عنه نهاني

وكيف يكون النوم ، ام كيف طعمه   صفا النوم لي ان كنتما تصفان

والمعروف أن ابراهيم الموصلي كان قليل الاعجاب بمثل هذه الاشعار ، ولكنه مع ذلك، لم يستطع الاالاعترف بظرف ابن الاحنف وشاعريته .

يضاف الى ما تقدم ان حفيده ، حماد بن اسحق كان يقول : كان جدي ابراهيم مشغوفا بشعر العباس ؛ فيغني في كثير من شعره ، فذكر اشعارا كثيرة حفظت منها :

وقد ملئت ماء الشباب كانها   قضيب من الريحان، ريان، اخضر

هم كتموني سيرهم، حين ازمعوا   وقالوا : اتعدنا للرواح، وبكروا

ورووا ان المامون ؛ لما انشد قول ابن الاحنف « هم كتموني سيرهم حين ازمعوا » قال « سخروا بابي الفضل»

شاعر يعجب البدو والحضر

وعن شاعريته المتفوقة التي تعجب البدو والحضر على السواء ؛ روى احمد بن ابراهيم قال : اتاني اعرابي فصيح ظريف ، فجعلت أكتب عنه أشياء حسانا ، ثم قال لي : « انشدني لاصحابكم الحضريين » فانشدته للعباس بن الاحنف :

ذكرتك بالتفاح لما شممته   .... لما قابلت اوجه ....

تذكرت بالتفاح منك سوالفا   .... طمعا من مقبلك العذب

فقال : « هذا عندك ، وانت تكتب عني . لا افيدك حرفا . بعد هذا » .

بين العباس وابي العتاهية

ومن اوثق الدلائل على اهتمام العصر العباسي الذي ينتمي اليه العباس بن الاحنف ، بالشعر : تعصب الناس لهذا او ذاك من الشعراء ، وانقسامهم ما بين مؤيد ومعارض . وفي « الاغاني » ، يروي الاصفهاني حكاية لمجلس من مجالس الرشيد ، ويذكر قول اسحق بن ابراهيم الموصلي :

كان الرشيد يقدم ابا العتاهية حتى يجوز الجد في تقديمه ، وكنت اقدم العباس بن الاحنف . فاغتابني بغض الناس عند الرشيد ، وعابني عنده ؛ وقال عقب ذلك : « بحسبك يا امير المؤمنين انه يخالفك في العباس ابن الاحنف ، على حداثة سنه ، وقلة حذقه وتجربته ؛ ويقدمه على أبي العتاهية ، مع ميلك اليه » .

وبلغني الخبر ، فدخلت على الرشيد ، فقال لي ابتداء : « ايما اشعر عندك : العباس بن الاحنف : او ابو العتاهية ؟ »

فعلمت الذي يريد ، فاطرقت كاني متشبث ؛ ثم قلت : ابو العتاهية اشعر .

قال : انشدني لهذا ولهذا .

قلت : فبايهما ابدا ؟

قال : بالعباس .

فانشدته اجود ما ارويه للعباس ؛ وهو قوله :

احرم منكم بما اقول وقد   نال به العاشقون من عشقوا

فقال لي : احسن . فانشدني لابي العتاهية :

فانشدته اضعف ما اقدر عليه ، وهو قوله

كان عتابة من حسنها   دمية قس فتنت قسها

يا رب لو انسيتها بما   في جنة الفردوس ، لم انسها

اني اذن مثل التي لم تزل   دائبة في طحنها كسها

حتى اذا لم يبق منها سوى   حفنة بر ، قتلت نفسها

قال : اتعيره بهذا ؟ اين انت من قوله :

قال لي احمد ، ولم يدر ما بي   اتحب الغداة عتبة حقا

فتنفست ، ثم قلت : نعم ، حبا   جرى في العروق ، عرقا فعرقا

ويحك ! اتعرف لاحد مثل هذا ؟ او تعرف احدا سبقه الى قوله ؟ ثم قال لي : اذهب : ويحك ؛ فاحفظها ! »

فقلت : نعم ، يا امير المؤمنين ! ولو كنت سمعت بها لحفظتها !

قال اسحق : « وما اشك اني كنت احفظ لها ؛ حينئذ ، من ابي العتاهية ، ولكني انما انشدت ما انشدت تعصبا ! »

شاعر اثر في الشعراء

وشاعر : في مثل رقة ابن الاحنف وعذوبته : لا ريب مؤثر فيمن نهج نهجه من الشعراء ، حتى لتراهم ياخذون من معانيه ما يصوغونه باسلوبهم ، لكن هذه الصياغة

الجديدة لا تخفي : على متذوقي الشعر : المنبع الاصيل الذي صدرت عنه .

روى عون بن محمد الكندي ، قال : كنا مع مخلد الموصلي في مجلس ، وكان معنا عبد الله بن ربيعة الرقي . فانشد مخلد الموصلي قصيدة له يقول فيها :

كل شيء اقوى عليه ، ولكن ليس لي بالفراق منك يدان

نجعل يستحسنه ويردده ، فقال له عبدالله : انت الفداء لمن ابتدا هذا المعنى فأحسن فيه حيث يقول :

سلبتني من السرور ثيابا وكستني من الهموم ثيابا
كلما اغلقت من الوصل بابا فتحت لي الى المنية بابا
عذبيني بكل شيء سوى الصد فما ذقت كالصدود عذابا

قال : فضحك الموصلي . والشعر للعباس بن الاحنف !

موت الشاعر العاشق

وننهي هذه المقتطفات بحديث وفاة العباس بن الاحنف ، وقد كلف بفوز الجارية : كلفا شديداً ، حتى اذا خرجت من ملك صديقه محمد بن المنصور ، كما رأينا ، راح شاعرنا يبكيها بمدرار الدموع ، وهي في الحج وضمن قصائده اليها حكاية حاله ، وما يعانيه من شوق وهيام كما في قوله :

ازين نساء العالمين اجيبي دعاء مشوق بالعراق غريب
كتبت كتابي ، ما اقيم حروفه لشدة اعوالي وطول نحيبي
اخط وامحو ما اخط بعبرة تسح على القرطاس سح غروب(٧)
ايا فوز ، لو ابصرتني ما عرفتني لطول نحولي بعدكم وشحوبي
وانت من الدنيا نصيبي فان امت فليتك من حور الجنان نصيبي
ارى البين يشكوه المحبون كلهم فيا رب قرب دار كل حبيب

حتى اذا عادت فوز من الحج ، عاد الشاعر الى معاناة العذاب كما لم يعانه معذب قبله ، ولبث يناجيها ويترنم باسمها ، وكأنه الرقية انعقدت على شفة ساحر ، حتى وافته منيته ، في ظروف حزينة مؤثرة .

روى ابو بكر الصولي عن ابي زكريا البصري ، قال : حدثني رجل من قريش ، قال : خرجت حاجا مع رفيقين لي ؛ فعرجنا على الطريق لنصلي . فجاءنا غلام ؛ فقال لنا : « هل فيكم احد من اهل البصرة ؟ » فقلنا : « كلنا من اهل البصرة » .

فقال : « ان مولاي من اهلها ويدعوكم اليه »

فقمنا اليه ، فاذا هو نازل على عين ماء ، فجلسنا حوله ، فاحس بنا ، فرفع طرفه ضعفا ، وانشا يقول :

يا بعيد الدار عن وطنه مفردا يبكي على شجنه (٨)
كلما جد الرحيل به زادت الاسقام في بدنه (٩)

ثم اغمي عليه طويلا ونحن جلوس حوله ، اذ اقبل طائر فوقع على اعالي شجرة كان تحتها ، وجعل يغرد . ففتح العباس عينيه ، وجعل يسمع تغريد الطائر ، ثم انشا يقول :

ولقد زاد الفؤاد شجا طائر يبكي على فننه
شفه ما شفني ، فبكى كلنا يبكي على سكنه

ثم تنفس تنفسا فاضت معه نفسه ، فلم نبرح من عنده حتى غسلناه وكفناه وتولينا الصلاة عليه . فلما فرغنا من دفنه . سألنا الغلام عنه ، فقال : « هذا العباس بن الاحنف » (١٠)

شاعر متفوق واسع الشهرة

وبعد ، فان العباس بن الاحنف لم يكن من الشعراء في صعاليكهم او مجاهيلهم . فقد كان شاعرا واسع الشهرة في زمانه ، وكان مقدما على غيره من الشعراء في الموضوع الرئيسي الذي كاد يقف شعره عليه : عنيت به الغزل .

لقد كان العباس – كما يذهب الاصفهاني – شاعرا غزلا شريفا مطبوعا من شعراء الدولة العباسية ، وله مذهب حسن ، ولديباجة شعره رونق ، ولمعانيه عذوبة ولطف ، ولم يكن يتجاوز الغزل الى مديح ولا هجاء ، ولا يتصرف في شيء من هذه المعاني .

اما ابو العباس المبرد ، فقد قدمه في كتابه «الروضة» على نظرائه : واطنب في وصفه ، ومما قال فيه : « رايت جماعة من الرواة للشعر يقدمونه » وقال : « كان العباس من الظرفاء ولم يكن من الخلعاء . وكان غزلا ولم يكن فاسقا . وكان ظاهر النعمة ، ملوكي المذهب ، شديد التزيف ، وذلك بين في شعره . وكان قصده الغزل ، وشغله النسيب ، وكان حلوا ، مقبولا ، غزلا ، غزير الفكر واسع الكلام ، كثير التصرف في الغزل وحده ، ولم يكن هجاء ولا مداحا » .

وقال عنه صالح بن عبد الوهاب : « ولم تزل العلماء تقدمه على كثير من المحدثين ، ولا تزال قد ترى له الشيء البارع جدا حتى تلحقه بالمحسنين » .

ووصفه ابراهيم بن العباس ، فقال مشيدا بشخصيته وشاعريته : « كان ، والله ، ممن اذا تكلم ، لم يحب سامعه ان يسكت ، وكان فصيحا ، جميلا ظريف اللسان لو شئت ان تقول كلامه شعرا لقلت » .

واما ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ؛ فقد روى عنه ابن اخته ، يموت بن المزرع ؛ قال : سمعت خالي يقول : لولا ان العباس بن الاحنف احذق الناس واشعرهم واوسعهم كلاما وخاطرا ، ما قدر ان يكثر شعره في مذهب واحد لا يجاوزه ، لانه لا يهجو ولا يمدح ولا يتكسب ولا يتصرف ، وما نعلم شاعرا لزم فنا واحدا لزومه ؛ فأحسن فيه واكثر » .

ويبدو لنا ان كون العباس من عرب خراسان ، اصلا ، وفي بغداد نشأة ، جعل بعض الخراسانيين يستنسخون شعره ، ويكتبون على نسخهم ، « شعر الامير ابي الفضل العباس» ، كما يروي عبيدالله بن عبدالله بن طاهر ، وذلك تكريما له ، وتعظيما لشأنه في عالم الشعر

ديوان الشاعر

ولقد تعدت شهرة العباس بن الاحنف عصره ، ولبث الشعراء ، على توالي العصور الادبية ، يتأثرون به ، وينهجون نهجه ، فهو قد اتصف بالحذق وسعة الخيال ،

ولولاهما لما استطاع ان يكثر من النظم في مذهب واحد لا يتجاوزه ، ويندر ذلك في الشعراء قديما وحديثا .

واذا كان ديوانه قد طبع في الاستانة عام ١٢٩٨ هـ مع ديوان ابن مطروح ، فقد قيض لشاعرنا العراقي شاعرة عراقية مجيدة رقيقة هي الدكتورة عاتكة الخزرجي التي تاثرت بشعره ايما تأثر ، ووضعت عنه كتابا ، وحققت ديوانه الذي كان موضوعا لاطروحتها في جامعة « السوربون » بباريس ، وطبعته بمطبعة دار الكتب المصرية : يقول عنها جمال الدين الالوسي (١٢) :

« احبت ابن الاحنف ، واستلهمت انفاسه . وتأثرت باسلوبه ؛ وطبعها بطابعه في الحب والخيال المجنح ؛ وان اختلفت بحبها عن حبه ، والعباس بن الاحنف ، حامل لواء الحب في صدر الدولة العباسية ، هو الذي وصفه الصولي ، الناقد والكاتب العباسي ؛ قال : « ما رايت كلاما محدثا اجزل في رقة ؛ ولا اصعب في سهولة ، ولا ابلغ في ايجاز من شعر العباس » . وهذا ما يصدق على نثر الدكتورة عاتكة وعلى شعرها .. احبت ابن الاحنف ، وتاثرت به ؛ وآثرته على غيره من الشعراء ، ومنحته الحياة من جديد بكتابها عنه وتحقيقها لديوانه باسلوبها وتعبيرها المتميز العلمي الدقيق » .

شاعر لم يتكسب

ولا ريب عندنا ، بعد كل ما تقدم ، ان الرقة التي يتسم بها شعر ابن الاحنف اجمالا ، والتي تؤول في بعض احيان الى سهولة هي اشبه بالركاكة ، نظرا لما يعتورها من ضعف الصياغة الفنية ، او من الخطأ اللغوي ، انما مرجعها الى كون الكثير من شعره قد ارتجل ارتجالا ، وفي موضوعات غالبا ما كانت تفرض عليه فرضا ، وفي ذلك ظلم مبين للشعر والشاعر .

وفيما عدا ذلك ، فان عدم اتساع شهرة العباس بن الاحنف ، لدى عامة الناس خلافا لما احرزه غيره من شعراء العصر العباسي من الشهرة العريضة ، انما يعود الى المقاييس التي كان العصر يأخذ بها ؛ اذ يربط بين شاعرية الشاعر بمقدار ما يعالجه من فنون المدح والهجاء والفخر والرثاء وما اليها ؛ وما كان لشاعر غزل رقيق كأبي الفضل العباس بن الاحنف ان يخوض في تلك المواضيع ؛ اقتناعا منه ان الفن الخالد الباقي هو الفن الذي لا يرتبط بمناسبة ولا يبالغ في مديح وهجاء تهتز لهما اعواد المنابر : ولا يصوغ المراثي الزائفة التي ترتعش لها اتربة المقابر ، ولكنه الفن الذي يغني مشاعر الانسان ، ويترجم خواطر الوجدان ، في كل آن وزمان ، فلا عجب بعد هذا ، اذا هو لم يترخص ويتكسب ، ثم لا عجب اذا اعتبره الزبير اشعر الناس ، واذا وصفه البحتري الشاعر بانه اغزل الناس !

فوزي عطوي

الهوامش

(١) الدكتور شوقي ضيف في كتابه « العصر العباسي الاول » ص ٢٧٩ ـ ط ١٩٦٦ دار المعارف بمصر .

(٢) ابن اخت العباس بن الاحنف ، ابراهيم بن العباس بن محمد بن صول تكين الصولي ، الشاعر المشهور ، وهو غير ابي بكر محمد بن يحي بن عبد الله بن العباس بن محمد بن صول تكين ، الكاتب المعروف بالصولي الشطرنجي .

(٣) وروي الصدر ايضا : « وان كان ما بلغته كان باطلا » .

(٤) بينما روى غيره ان العباس كان رقيق الحاشية ، لطيف الطبع ، اضافة الى كونه جميل المنظر ، نظيف الثوب ، فاره المركب ، حسن الالفاظ ، كثير النوادر ، شديد الاحتمال ، طويل الساعدة . (دائرة معارف القرن العشرين ـ ج ٦ ص ٩١) .

(٥) راجع دراستنا له في « الاديب » ـ عدد نوفمبر وديسمبر ١٩٧٥

(٦) الاغاني ج١ ـ ص ١٧ ، لكن الاصفهاني يورد القصة ذاتها في ج ١٥ ص ١٤٢ ، ويقول ان الحادثة جرت امام الفضل بن الربيع ، ولا نملك امام هذا التناقض ما يؤكد حصول الحادثة امام الخليفة او امام الوزير .

(٧) الذنوب : الدلو المملوءة .

(٨) وروي الصدر ايضا : « يا سقيم الجسم من محنته » .

(٩) وروي البيت ايضا :

كلما جد البكاء به ... دبت الاسقام في بدنه

(١٠) محمد فريد وجدي في « دائرة معارف القرن العشرين » (ج٦ ـ ص ٩٢) ، بعد ذكر هذه الحادثة ان ما ذكر من ان العباس بن الاحنف مات هو والكسائي وابراهيم الموصلي وهشيمة الخمارة في يوم واحد ، وان الرشيد امر المامون ان يصلي عليهم وانه قدم العباس بن الاحنف .. ففيه نظر لان الكسائي مات سنة ١٥٩ هـ على خلاف فيه . وما كان المامون كما قيل ليقدم العباس على مثل الكسائي ، وايضا فقد روى الصولي انه رأى العباس بن الاحنف بعد موت الرشيد بمنزله بباب الشام . ويرجح وجدي ان العباس توفي سنة ١٩٢ او سنة ١٩٣ .

(١١) تاريخ اداب اللغة العربية لجرجي زيدان ـ ج٢ ص ٣٩٥ .

(١٢) من مقال له في مجلة « العربي » ـ العدد ٢١٤ سبتمبر ١٩٧٦ ص ١٠٨ ـ ١١٢ بعنوان : الدكتورة عاتكة الخزرجي وديوانها : « افواف الزهر » .

المراجع

١ ـ الاغاني : للاصفهاني .
٢ ـ الكامل والروضة : للمبرد .
٣ ـ طبقات الشعراء : لابن المعتز .
٤ ـ عيون الاخبار : لابن قتيبة .
٥ ـ الشعر والشعراء : لابن قتيبة .
٦ ـ الاعجاز والايجاز : للثعالبي .
٧ ـ وفيات الاعيان : لابن خلكان .
٨ ـ ديوان العباس بن الاحنف : تحقيق د. عاتكة الخزرجي .
٩ ـ العصر العباسي الاول : للدكتور شوقي ضيف .
١٠ ـ معجم الادباء : لياقوت الحموي .
١١ ـ تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي .
١٢ ـ كتاب الوزراء : لابراهيم بن عباس الصولي .
١٣ ـ الاوراق : لابي بكر الصولي
١٤ ـ طبقات الشعراء : لابي عبدالله بن سلام الجمحي .
١٥ ـ دائرة معارف القرن العشرين : لمحمد فريد وجدي .
١٦ ـ تاريخ اداب اللغة العربية : لجرجي زيدان ج ٢ .
١٧ ـ مجلة « العربي » ـ الكويت ع ٢١٤ .

كانت ملكة احلامه هي الاميرة « اجبنا » .
ولم يكن شاعر الملك « نارابام » قد راها من قبل . وفي ذلك اليوم الذي كان الشاعر ينشد فيه امام الملك قصيدته الجديدة . جعل يرفع صوته بحيث يمكن ان يصل الى مستمعين كانوا متوارين في الشرفة المغطاة بالستائر التي تعلو البهو الكبير .

وكان يرفع انشودته الى افق النجوم البعيدة حيث يلتمع بينها الكوكب المهيمن على مصيره والمحاط بالضياء في افاق مجهولة بعيدة عن حدود رؤيته .

وكان يلمح بين آونة واخرى بعض الظلال المتحركة خلف الستائر ، وتتساب الى اذنه غمغمات آتية من بعيد . فيسترسل حالما مع وقع الكعاب التي تجلجل اجراسها الذهبية عند كل خطوة . يا لتلك الاقدام الرقيقة الحمراء الوردية التي تطأ التراب الارضي اشبه بالرحمة تنسكب على الخاطئين .. !

لقد وضعها الشاعر في محراب قلبه : حيث نسج اناشيده على نغمات اجراسها الذهبية . ولم يخالجه شك فيمن تكون تلك التي يتحرك ظلها خلف الستار والتي غنت اقدامها في ذلك الحين لقلبه الخافق .

ومرت « مانجاري » وصيفة الاميرة بالقرب من منزل الشاعر وهي في طريقها الى النهر . وكان من عادتها كلما مرت به أن تتحين الفرصة لتتبادل مع الشاعر بعض الكلمات حول خبث ذوي المكر والدهاء . فعندما وجدت الطريق خاليا وظل الغسق يكسو الوادي . تجاسرت على دخول غرفته ، وجلست على ركن سجادته . وكان ثمة دائما ما يشي بعض الاشتباه حول عنايتها الزائدة باختيار لون برقعها وتنسيق الزهور على شعرها .

وقد تبسم الناس وتهامسوا في ذلك : ولا لوم عليهم . ذلك ان الشاعر نفسه لم يحاول اخفاء الحقيقة ولا ان

هذه المقابلات كانت مدعاة لغبطته الخالصة .

وكان معنى اسمها « نثير الزهور » . ولا بد من الاعتراف بان هذه التسمية كانت ذات عذوبة نافية بالنسبة الى العاديين من ابناء الفناء . ولكن شاعرنا قد اضاف اليها معنى من مولدات فكره ، فاطلق عليها « نثير زهور الربيع » وهز العاديون من اهل الفناء رؤوسهم عجبا ودهشة .

وفي اناشيد الربيع التي ابدعها الشاعر كان الثناء على نثائر زهور الربيع يتردد كثيرا في شعره وبشكل ظاهر ، وتبسم الملك وغمز بعينه وهو يستمع اليه : ورد الشاعر على ذلك بالابتسام .

وساله الملك : هل مهمة النحلة مجرد الحومان في ساحة الربيع ؟

وكان جواب الشاعر : كلا ، ولكنها

النصر

الشاعر الهند رابندرانات طاغور

ترجمها عن الانجليزية جرجس عبده

ايضا ترتشف العسل من براعم زهور الربيع .

واستضحك كل الجالسين في بهو الملك . واشيع بان الاميرة اجبنا قد ضحكت ايضا لتقيل وصيفتها للاسم الذي أطلقه الشاعر عليها . واحست مانجاري نفسها بالغبطة

قصة

تملأ قلبها .

وهكذا يختلط الواقع بالخيال في الحياة — ويضيف الانسان الى زخارفه الخاصة الى ما ابدعه الله .

والحقائق النقية الوحيدة هي تلك التي افصح عنها الشاعر في قصائده . وكان موضوعها هو « كريشنا » العاشق ، « ورادها » المعشوقة ، الرجل الابدي والمراة الابدية ، الحزن الذي ياتي من بداية الزمان ، والفرح الذي لا نهاية له . وصدق هذه الاناشيد نابع مما احسه هو في اعماق قلبه ومما لمسه من اثرها في نفوس الجميع من الشحاذ الى الملك نفسه . فاناشيد الشاعر كانت على شفاه كل الناس . فعند ابسط شعاع من ضوء القمر واخفت همسة من نسيم الصيف كانت تنبعث اغانيه في الارض من النوافذ وساحات المنازل ، من الزوارق السابحة ، من ظلال اشجار الطريق ، بنغمات لا عداد لها .

وهكذا مرت الايام سعيدة . فالشاعر ينشد ، والملك يصغي ، والمستمعون يصفقون ، ومانجاري لا تنقطع عن زياراتها للشاعر كلما كانت في طريقها الى النهر . والظل يخفق خلف الشرفة المغطاة بالستائر ، والاجراس الذهبية الدقيقة تجلجل من بعيد .

وفيما الامور تجري مجراها الهادىء الوائق الجميل خرج من بيته في الجنوب شاعر يمضي في طريقه الى احراز النجاح . ووصل الى الملك نارابام . بمملكة امارابور فوقف امام العرش . والقى قصيدة في مدح الملك . وتغلب على جميع شعراء البلاط ، الواقفين في طريقه ، وظل منتصرا على طول الطريق .

وكان استقبال الملك له مجاوفا بمظاهر التكريم ، فقال له : ايها الشاعر اننا نرحب بك .

ورد « بونداريك » الشاعر في كبرياء : مولاي انني ادعو الى النزال .

ولم يكن « شيخار » شاعر البلاط

الملكي يعرف كيف تشن معركة القرائح . فلم يذق طعما للنوم في ليلته . فالجسم الجبار لبونداريك الشهير وانفه الحاد المعقوف كالسيف وراسه الصلف المائل في كبرياء قد اطبقت على الشاعر في رؤاه الليلية خلال الظلام .

وبقلب واجف دخل شيخار ساحة المنافسة في الصباح . وكان المسرح غاصا بالحاضرين .

وحي الشاعر غريمه بابتسامة وانحناءة . ورد بونداريك التحية بهزة خفيفة من راسه ، وحول وجهه نحو انصاره المعجبين في ابتسامة ذات مغزى .

ووجه شيخار نظره نحو الشرفة العالية المغطاة بالستائر ، وجعل يحيي في اعماق قلبه طيف ملكة احلامه وهو يناجيها قائلا : اذا قدر لي ان انتصر في هذا اليوم يا فتاتي ، فسيظل اسمك المظفر مطوقا بهالات المجد .

ودقت الطبول . ونهض المحتشدون يهتفون بالنصر للملك . ودخل الملك في معطفه الابيض الفضفاض ، بخطوات وئيدة . دخل الى الردهة كسحابة خريف طافية ، وجلس على عرشه .

- ونهض بونداريك . وعم الصمت البهو الشاسع . وبراسه الشامخ وصدره المنتفخ بدأ يتلو بنبرات صوته الراعد قصيدته الجديدة في مدح الملك نارابام . وترددت اصداء كلماته على جدران البهو اشبه بأمواج البحر الهادرة وبدت كأنها تدوي في ضلوع المستمعين من الحشد . والمهارة التي تناول بها اسم الملك فاداره على شتى المعاني وادخل كل حرف منه في نسيج شعره مستخدما اساليب التشبيه البارعة قد الجمت انفاس المستمعين اليه وادهشتهم .

وبعد ان اخذ الشاعر مجلسه استمرت اصداء صوته لبضع دقائق تتردد بين الاعمدة التي لا عداد لها في قصر الملك وبين جوانح الاف المستمعين الصامتين . ورفع الاساتذة المثقفون الذين جاءوا من البلاد البعيدة ايديهم اليمنى وهم يهتفون بعبارات التشجيع والثناء احسنت وايم الله ! لا فض فوك !

والقى الملك نظرة على وجه شيخار وردا على ذلك رفع شيخار عينيه المفعمتين بالالم وجعل ينظر بهما الى سيده بضع لحظات . ثم وقف كوعل جريح يتأهب للدفاع عن نفسه . وكان وجهه شاحبا ، وخجله يكاد يكون كخجل المرأة ، وجسمه الذي بقيت فيه امارات قليلة من الشباب قد بدا في خطوطه الرقيقة اشبه بآلة موسيقية مشدودة الاوتار مهيأة لارسال نغماتها عند ادنى لمسة .

وكان محني الرأس خفيض الصوت عندما شرع في الانشاد ، والابيات القليلة الاولى لم تكد تسمع . ثم رفع راسه في تؤدة وعلا قليلا صوته العذب الواضح في السماء اشبه بشعلة من النار المرتجفة . وبدأ بالاسطورة القديمة للنسب الملكي الذي اختفى في ضباب الماضي ، واستعرضها خلال مجراها الطويل الحافل بالبطولة والكرم المنقطع النظير حتى وصل بهذا النسب الى الجيل الحاضر . ثم ثبت نظرته على وجه الملك ، وتصاعد حب الناس الهائل الفائق للبيت الملكي اشبه بالبخور في قصيدته ، وغمر العرش من كل جوانبه . وكانت هذه هي كلماته الاخيرة عندما اخذ مجلسه وهو يرتجف : « سيدي قد اكون غلبت على امري في رصف الالفاظ والتلاعب بها ؛ ولكن ليس لنقص في محبتي لك » .

وملأت الدموع عيون المستمعين : واهتزت الجدران الحجرية بصيحات النصر .

ونهض بونداريك ساخرا من هذه الموجة من الشعور الشعبي وهز راسه هزة مهيبة وهو يطلق نبرة احتقار ساخرة ثم وجه هذا السؤال الى الجميع : « هل هناك ما هو اسمى من الالفاظ ؟ » ولم تمر لحظة حتى كان الصمت يشمل البهو مرة ثانية .

ثم راح يستعرض مقدار ثقافته الهائلة : فأثبت ان الكلمة هي اول ما شرف به الانسان : وان الكلمة هي عنوان تفوقه . وحشد طائفة هائلة من الاقوال المقتبسة من الاسفار المقدسة : وشيد محرابا عاليا للكلمة يفوق كل ما هو موجود في السماء والارض . واعاد ذلك السؤال بصوته الجبار « هل هناك ما هو أسمى من الكلمات » ؟

وتلفت حوله في زهو وكبرياء . ولم يتجاسر احد على معارضته . فجلس في مقعده ببطء كأسد تناول للتو غذاءه الكامل من فريسته . وصاح الاتباع : ابدعت المقال ، لا حرمنا الله منك ! ولزم الملك الصمت وقد غمرته الدهشة واحس شيخار بضآلته بالقياس الى هذه الثقافة الهائلة . وانفض الاجتماع في ذلك اليوم .

وفي اليوم التالي بدأ شيخار انشاده ودارت قصيدته حول ذلك اليوم الذي حركت فيه نغمات مزمار الحب الهواء الساكن لغابة فريندا للمرة الاولى .

ولم تعرف فيه الراعيات من هو العازف ولا متى انبعثت الموسيقى . وقد لاح احيانا انها منبعثة من قلب الرياح الجنوبية ؛ وتارة اخرى انها اتية من السحب الشاردة فوق قمم التلال . وقد جاءت حاملة لرسالة موعد من ارض المشرق ، وطافت من تخوم المغرب بانها الحزينة . ولاحت النجوم كأنها وقفات الالة التي غمرت احلام الليل بالغناء . وبدت الموسيقى كأنها منبثقة نورا من جميع الجهات : من الحقول والغدران ، من المنعطفات الظليلة ، والطرق المهجورة : من زرقة السماء الذائبة ، من خضرة المروج المائجة . فلم تعرف الراعيات معناها ولا استطعن ان يجدن الكلمات التي تعبر عن رغبة قلوبهن فاغرورقت عيونهن بالدموع ، ولاحت حياتهن كأنها تتوق الى موت يكون هو غايتها

ومنتهاها .

ونسي شيخار مستمعيه . ونسي انه يختبر قوته مع غريم منافس . ووقف بمفرده وسط خواطره التي ارتعشت حوله كأوراق الشجر تحت حبات النسيم في ليالي الصيف : وانشد اغنية المزمار . وكانت في ذهنه رؤيا الصورة اتخذت شكلها من احد الظلال : ومن صدى صوت جلجلة واهنة لخطى اقدام بعيدة .

واتخذ مجلسه. وارتجف مستمعوه بمشاعر لا يمكن وصفها ، حزينة وفرحة مهولة وغامضة . ونسوا ان يصفقوا له . ولما تلاشى هذا الشعور نهض بونداريك واقفا امام العرش وتحدى منافسه ان يوضح من كان هو هذا العاشق ومن كانت هي المعشوقة. وتلفت حوله في تبجح وغرور ، وتبسم لاتباعه ثم القى سؤاله مرة اخرى : « من هو كريشنا العاشق ؛ ومن هي رادها المعشوقة ؟ »

ثم بدا يحلل الاصول التي اشتق منها هذان الاسمان ؛ ويدلي بشتى التفسيرات لمعانيها . فاورد امام الجمهور الحائر كل حيل المدارس الميتافيزيقية المختلفة بمنتهى البراعة. ففكك كلا من هذين الاسمين الى حروف منفصلة عن بعضها البعض ، ثم تتبع مدلولاتها بمنطق صارم حتى انحلت الى ذرات غامضة لكي يعود الى تركيبها ثانية في معنى لم يسبق ان تخيله ابرع فقهاء اللغة .

واستولت على المعجبين النشوة وارتفعت اكفهم بموجة من التصفيق الشديد وتابعهم جمهور الحاضرين متوهمين انهم لا شك قد شاهدوا في ذلك اليوم اخر رقعة من ستائر الحقيقة تتمزق امام اعينهم بمعجزة من معجزات الذكاء وقد بلغ من اعجابهم بتمثيل مأثرته الهائلة انهم نسوا أن يسألوا انفسهم هل كانت تتضمن اية لمحة من الصدق في النهاية ؟

وغمرت الدهشة نفس الملك . فالجو قد صفا تماما من كل احلام الموسيقى وبدت صورة العالم المحيط وقد تحولت من نضارة خضرتها الرقيقة الى صلابة طريق عال قد ارتفع ورصف بالصخور المسحوقة .

وبدا في اعين المجتمعين ان شاعرهم مجرد صبي صغير بالقياس الى هذا العملاق الذي مضى بهذه السهولة ، راكلا الصعوبات في كل خطوة خطاها في دنيا الكلمات والافكار . وظهر لهم لاول مرة ان القصائد التي كتبها شيخار كانت بسيطة بشكل غريب . ولا بد ان الصدفة وحدها هي التي مكنته ولم تمكنهم من كتابتها . فهي ليست عميقة ولا صعبة ولا اخلاقية ولا ملتزمة .

وحاول الملك ان يحفز شاعره بنظراته المشجعة ؛ ويومئ اليه في صمت ان ينهض بمحاولة اخيرة . ولكن شيخار لم يلتفت الى ذلك . وظل ثابتا في مقعده .

ونزل الملك عن عرشه في غضب فخلع سلسلته اللؤلؤية ووضعها على راس بونداريك . وقابل الحاضرون ذلك بابتهاج كبير . ومن الشرفة العليا انبعث صوت رقيق لحفيف ثياب ؛ وسلاسل الخصور ذات الاجراس المعلقة .

ونهض شيخار من مقعده وغادر البهو .

وكانت ليلة حالكة الظلام والقمر في المحاق حين انزل الشاعر شيخار مخطوطاته من فوق ارففها وكومها على الارض . وقد كان بعضها يحتوي على باكورة كتاباته التي كاد ينساها واخذ يتصفحها ويقرأ الفقرات من هاهنا وها هناك .

فلاحت له جميعها فقيرة تافهة مجرد كلمات مرصوفة : واوزان صبيانية .

فاخذ يمزق كتبه واحدا بعد الاخر الى جزاءات صغيرة ، فالقاها في وعاء اضرم فيه النار : وجعل يقول: « اليك اليك ، يا جلوتي الجميلة .. لقد كنت تشتعلين في قلبي طوال هذه السنين التافهة . فلو ان حياتي كانت قطعة من الذهب لخرجت من تجربتها اكثر التماعا . ولكنها عشب هش تطؤه الاقدام، فلم يبق منها سوى هذه الحفنة من الهشيم » .

وانقضت الليلة . ففتح شيخار نوافذه على مصاريعها . ونثر على فراشه الزهور البيضاء التي طالما احبها وتغنى بها في اشعاره : زهور الياسمين والنرجس والاقحوان ؛ واحضر الى غرفة نومه كل المصابيح التي في منزله واشعلها ثم مزج بالعسل عصيرا لبعض الجذور السامة؛ فشربه واستلقى على فراشه .

وجلجلت الاجراس الذهبية في الممر خارج الباب ، ونفذ عطر رهيف الى الغرفة مع النسيم .

وقال الشاعر وعيناه مطبقتان : « سيدتي هل اخذك العطف على خادمك في النهاية فجئت لرؤيته ؟! »

وجاء الجواب بصوت عذب : « اي شاعري ، انني قد جئت » .

وفتح شيخار عينيه — فراى امام السرير هيكل امراة .

وكان بصره معتما غائما . فلاح له ان الصورة المرتسمة في الظل والتي ظل يحتفظ بها على العرش في المحراب الخفي لقلبه قد برزت الى العالم الخارجي في لحظته الاخيرة لكي تلقي نظرتها على وجهه .

وقالت المراة : « انني الاميرة اجنا » . ....

واعتدل الشاعر على سريره بجهد كبير .

وهمست الاميرة في اذنه : « لم ينصفك الملك يا شاعري . انت هو الظافر في المعركة . وقد جئت لكي اتوجك باكليل النصر »

ونزعت عقد الزهور من عنقها ؛ ووضعته على شعره، وسقط الشاعر على فراشه وقد فارقته الحياة .

القاهرة — جرجس عبده

اوزوريس .. واخضرار الليل

في ذاك اليوم ..
حملت على كفي وجه ضياعي
وارتجفت في الاضلاع رؤى الاشواق
شق الظما العاتي نهر الاعراق
واسير وفي الايدي كلمات
تورق في انسجة اليتم المتحجه
وتعالى صوت العاشق في كهف الاعماق
فاضاء مشاعل شمس مغتربه
تتصاعد منها النبضات الشاحبة الالوان
آه .. تمتمت الاعماق الوعره
في العام الاتي بعد الاعوام العشرين
ياتي الجلاد ليقتل حلم النسرين
آه يصلب فوق صواري الريح حنين الثمره

ما اقسى الليل
ان طافت فيه الروح العطشى
كي تلتقط الانسام لتبنى للاهة عشا وتنام
اتذكر ذاك العام
ورفاتي تتكوم في جوف الثلج
وعلى اطراف المخدع شوفان ذابل
نسمات الحب الساكنة الاهداب
ترقرق بالدمع فتلثمني ثم تغيب بعمق العينين
آه يا ليل المطر الاسود
وانا ارتشف النبض الاجرد
حين اتاه صقيع الاخبار ..
فبات على ارصفة الغرباء
في ذاك الليل .. قد قمت اكبل انفاسي
بخيوط الاحزان الفرقى
قد كنت كبهو كنيسة
والاجراس الظامئة الايقاع
نبضي الملتاع
استرجع حين مررت على لوحات قتامه
ومددت انامل صدري احمل منها للعشق علامه
وكسرت باعماقي كل الشرفات الفجريه
ونثرت على الطرقات .. همس الكلمات الورديه
آه ما اقسى حين تلامس اهداب العينين
قطرات المطر الاسود

وانا تحت دثار الصمت
اتحرق شوقا اسكب فوق وسائد حلمي
انشودة جرح تتلعثم في ثغر الوقت
اوآه فاسمع صرخة ايزيس
« اوزوريس .. ايزيس تناديك
ان تسكب فوق الرمل دمك
ان تزرع فيه شموس
وتشم عبير الطهر ..
تلون من حبات الرمل على الراس طقوس
وعلى الساعد ينبت بيدر شوفان
فلتسمع همس الريح العائدة العطشى
ولتحمل اغنية الطوفان »
كان الصوت العاشق يا ايزيس
كالموج يداعب حلم الشطآن
ينساب خرير حروفك في جدول شريان
« اوزوريس .. ايزيس تناديك »
فعبرت اليك وفي قلبي تورق نبضة قديس
رعشات الضوء تكللني
وعلى شرفات الاهداب زرعت ازاهير الميلاد
ورحلت الى ساحات الاحلام وفي صدري ..
عيناك طفولة اعياد
لاشب على خيط الاضواء فالثم شمس جبينك
وتعانقني انسام حنينك
آه في كل ثواني الميلاد القدسية
اعتنق الحب .. في طهر المعبد
في نبض التبر المخمور
اشواق صلاتي تتوسد
وعلى اعتابك اغرس اشجار اللوز واغصان الفيروز
واذيب باضلاعك قبلة تموز

ايزيس ... صدري اشرعة وجناحك زورق
ودمي اوسمة وعيونك بيرق
حبي كالسيف .. اهديتك سيفي
وعبرت اليك اواصل عزفي
آه اكتب فوق زهور اللوتس اشراقة حرفي

آه تمتمت الاعماق بغنوة ايزيس
في العام الاتي بعد الاعوام العشرين
قد جاءك اوزوريس ...
ليخضر الليل ويورق حلم النسرين

القاهرة

عبد الشافي داود



جعفر الخليلي

القصة عبر العصور

بقلم جعفر الخليلي

***

القصة حكاية ما يرتسم في الذهن من حياة الانسان في هذه الدنيا مما يقع ضمن حدود حواسه، او مخيلته فينقلها القاص كما وقعت ، او كما تصور ان تقع واذا اتيح للتاريخ ان يعين ابتداء معرفة الانسان لكل فن من الفنون كالشعر والغناء والموسيقى والرسم والنحت ، فانه عاجز كل العجز في ان يعين تاريخ ابتداء معرفة الانسان للقصة كفن ، اما القصة كحكاية فقد عرفها الانسان منذ ان عرف الكلام : ولا شك ان القصة كانت معروفة فيما قبل التاريخ وقبل اكتشاف الكتابة ، وقد استغرقت فترة ما قبل التاريخ حتى ظهور الحضارة نحو ٩٩٪ من حياة الانسان كما يقدر المؤرخون العلماء ، وقد ظل الانسان يتناقل القصة في عصور ما قبل التاريخ ابا عن جد او عمن يسمع منهم : وحتى الان ، وقد مر اكثر من ٣٠٠ سنة على اكتشاف نصوص للقصص في وادي الرافدين ووادي النيل مكتوبة على الطين وعلى البردي والناس لا يزالون يتناقلون قصصا عجز القلم عن ان يظفر بها لكي يدونها .

اما فترة ما قبل التاريخ ، فقد بدأت تنتهي بانتقال وادي الرافدين ووادي النيل من الحضارة في الحياة العامة من اساليب الصيد والزراعة ؛ والسكن ونظام المعيشة او الحروب بالتدريج حتى تم اكتشاف الكتابة وتدوين ما يهم الناس بواسطتها ، ويعتقد المؤرخون ان ابتداء هذا التطور كان في اواخر الالف الرابع قبل الميلاد .

ولقد عثر على نصوص تدل على ان قصصا قد كتبت في اوائل الالف الثاني قبل الميلاد في وادي الرافدين ؛ ووادي النيل ، واهم هذه القصص التي تكاد تكون كاملة هي ملحمة بابلية باسم (كلكامش) وهي قصة تتناول بطولة شخص باسم كلكامش وصديقه المسمى (انكيدو) وقد قام كلكامش بالبحث عن الخلود فكلف نفسه القيام برحلة من المخاطر في طرق وعرة مخيفة كلفته القتال واختراق الغابات الموحشة ، وعبور البحار ؛ وقد وصفت هذه القصة شيئا من عشق الالهة وفعل السحر والتطرق للطوفان في ملحمة يثير كاتبها المجهول الدهشة في براعة خياله وتضمينه الشيء الكثير من فلسفة الحياة في هذه الملحمة ، وتصوير العقائد التي كانت تسود ذلك العصر وقد ترجمت هذه القصة الى جميع لغات العالم على اغلب الظن وان احسن من ترجمها الى العربية وعرضها فنيا مع ضبط نصوصها كان الدكتور طه باقر الذي طبعت ترجمته طبعتين ببغداد ثم كان عبد الحق فاضل الذي امتازت ترجمته بحسن العرض والتحليل واخراج نصوصها شعرا في تفعيلات موزونة ذات نبرات موسيقية ، وقد طبعت منقحة ممتازة ببيروت .

وفي قطعة من اوراق البردي يعود تاريخها هي الاخرى الى اوائل الالف الثاني قبل الميلاد اي الى نحو ٤٠٠٠ سنة اكتشفت قصة بوادي النيل كانت مبتورة ولم تبق منها الا بقية اورد الدكتور بريستد ترجمتها على النحو التالي :

« .. مات الذين كانوا في الموكب جميعهم ، ولم ينج منهم احد ، اما انا ـ ولا يعرف من هو المتحدث ـ فالقتني موجة من امواج البحر العظيم على جزيرة فلبثت فيها ثلاثة ايام وحدي لا رفيق يسليني سوى قلبي ، وكنت انا مختبئا بين اشجار الى ان يغمرني نور نهار فانهض متسللا لعلي امسك شيئا املأ به فمي فكنت اجد تينا وعنبا وكثيرا من انواع الخضرة ..

ثم تواصل القصة الحكاية فتقول :

ان حية ذات لحية طويلة امسكته .. ووجد ان تلك هي ملك الجزيرة البعيدة الواقعة في البحر الاحمر عند مدخل الاوقيانوس الهندي ، واحتفظ الملك (الحية) بهذا البحري (الغريق) ثلاثة اشهر : احسن (الملك الحية) في اثنائها معاملته . ثم ارجعه الى مصر بعد ان حباه بكثير من النضار ..

وقد اعتبر المؤرخون هذا القاص اول سندباد بحري واعتبرت قصته هذه اول قصة نسج القصاصون على منوالها في سرد المغامرات .

واذا تركنا النصوص التاريخية فان لدينا من القصص التي تصور الكثير من عصور ما قبل التاريخ ، في قصص ممتعة ، واساطير غريبة رائعة سجلتها لنا التوراة عن الخليقة والطوفان وغير ذلك ، على الرغم من ان التوراة الاقديم لم تكتب الا في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد.

تقريبا . ولكنه كان جامعا لما كانت تتداولـه الالسن . ويقصه الناس بعضهم على بعض . حقيقة كان او خيالا . وكل هذا يشير الى قدم القصة .

ولم يكن هذا وحده الذي يشير الى قدم القصة واهميتها فهناك الشيء الكثير الذي تركه السومريون ، والبابليون ، والاشوريون ، والمصريون ، وما ورد في الاثار الفارسية بشيراز وعيلام ، وما عثر عليه بين اثار اليونان والرومان وما جاء في (الياذة) هوميروس و (اوديسه) وما نقلته (شاهنامة الفردوسي) مما جمعته من القصص على غرار جمع التوراة مما عثرت عليه من نصوص وما اقتبسته الحكايات المروية على الالسن والاساطير ، وما صورته (كليلة ودمنة) في غرضها الفني الذي يرمي الى فلسفة الحياة على السنة الحيوانات ، وكل هذا دليل على قدم القصة في دنيا الانسان وحياته الطويلة .

ويبدو من الملاحظات التي اوردها جيمس هنري بريستد عن القصص المصرية القديمة ان هذه القصص لم تكتب الا لغايات تتجاوز حدود التسلية والمتعة الى غايات انسانية واغراض سامية ، ومعنى ذلك ان هناك من كان يفهم قيمة القصة بانها لم تكتب الا لغاز يراد بها فهم الحياة ومقتضيات شبيهة بالقصص الهندية وبكليلة ودمنة من حيث المنزى وليس من حيث الاسلوب فهو يقول « ان الذين كتبوا هذه القصص في العصور المصرية القديمة كانوا يحاولون ان يستنهضوا بها همم الحكام واستمالتهم لمراعاة الطبقات الضعيفة من الشعب ونشر العدل والمروءة بينهم » .

اما القصة اليونانية القديمة فتمتاز بكونها اكثر القصص علاقة بالشعر والغناء وهي وان كانت قد دونت على الورق لاول مرة في نحو سنة ٧٠٠ قبل الميلاد ولكن هناك ما يدل على ان لها اصولا ترجع الى عدة قرون كان يتناقلها المتناقلون قصصا واشعارا قبل تدوينها ، وتمثل الالياذة قصة الحرب اليونانية في معركة طروادة كما تمثل الاوديسة (اوديوس) البطل عند عودته من طروادة ، وان القصص اليونانية مشحونة بقصص الالهة واختصاص كل اله فيما يملك من قوة وسيطرة . وكل هذا من القصص التي سبقت التدوين والكتابة .

* * *

وكلما خطا الانسان خطوة في الحضارة زادت القصة عمقا في التصوير واحاطت بالموضوع والهدف الذي ترمي اليه اكثر واكثر ، وابعدت في نقل الواقعة واسبابها وكيفية بدايتها ونهايتها وما يحتمل ان تكون النتيجة التي صارت عند تكامل عناصرها اجلى من المرآة واصدق في نقل الواقعة من الذهن الى الذهن .

والواقع ان الكثير من العصور القديمة لم يخل من هذه البراعة والتفنن في سبك القصة . ولكن القصة التي ظهرت بهذا المظهر الحديث بمجموعها العام اسلوبا وسردا وعرضا تحليليا وروعة فنية : لم تبدأ الا بابتداء النهضة الاوروبية : وبالامكان اعتبار مبدئها الصحيح سنة ١٧٠٠ على ما جاء في دائرة المعارف البريطانية فيما اخرجه فؤاد عباس .

ومع ذلك فاني اعتقد ان القصة لم تعرف قيمتها العلمية والفنية كما يجب ان تعرف الا في القرن التاسع عشر اذ لم يكن مفهوم القصة قبل هذا التاريخ في الغالب يتجاوز حدود الافادة التاريخية والتسلية في كثير من الاقطار وعلى الأخص الاقطار النامية ، ولم يكن لها من الشأن ما كان للشعر وسائر الفنون اخرى . وفي سنة ١٨٣٩ ظهر العالم الفرنسي اوغست كونت ليضع لاول مرة اسسا لعلم الاجتماع الذي سماه بالفيزياء الاجتماعية ؛ وعنى بذلك العلم الذي يدرس الظواهر الاجتماعية دراسة موضوعية كما تدرس العلوم الطبيعية كالفيزياء والكيمياء والفلك ، فهو بالاجمال علم يعنى بالدراسة العلمية للحياة الاجتماعية . وهنا ظهرت قيمة القصة كعامل مساعد لدراسة الحياة الاجتماعية واستخلاص قواعد هذا العلم منها .

وفي سنة ١٨٥٦ ـ ١٩٣٩ ظهر سيموند فرويد وهو عالم نمسوي ابتكر طريقة خاصة لعلاج الهستريا اصبحت فيما بعد اساسا للتحليل النفسي وقد تناول فرويد مظاهر كثيرة تخص الشعور ، والكبت ، والوعي ، والجنس منذ نشأة الانسان وهو طفل ؛ وظهر غيره كتلميذه ادلر ، ويونج ، ممن عالجوا الميول عند الانسان وقابلياته ، والنقص الكامن في نفسه ، فبانت قيمة القصة الحديثة في هذا الميدان بصورة واسعة وساعدت كثيرا على تطور علم اجتماع وعلم النفس والتربية ، كما اصبحت عاملا من اهم العوامل في سن القوانين وعلى ضوئها تلافى المشرعون كل ما كان قد فاتهم الالتفات اليه من نقص في التشريع .

وحين اهتدي ايجسون الى الصور المتحركة والتفكير في اختراع السينما سنة ١٨٩٤ وبلغ التصوير السينمائي المرحلة المتقنة التي تنقل القصة مجسمة وتجعلها نصب العين خصوصا عندما اصبحت السينما ناطقة سنة ١٩٢٦ ثم خرجت الصور بالوانها الطبيعية ؛ بانت اهمية القصة اكثر واكثر في تطوير المجتمع من حيث النشأة والتربية والعلم والمعرفة اضافة الى المتعة التي تدخل عن طريقها الى النفس وتتمتع بها العين والاذن والذهن ؛ وراح العالم يستعرض القصص القديمة ليرى فيها ما لم يكن قد رأى من قبل .

ولقيت القصة في الاقطار المتحضرة مرتعا خصبا بسبب تقدم العلم وانتشار المدنية حتى صار يطبع من القصة الواحدة ملايين النسخ لعدة مرات وتترجم الى عدة

لغات ؛ وتمثل على المسرح وعلى شاشة السينما ؛ والتلفزيون وتذاع في الراديو .

***

وللقرآن الكريم فضل السبق في التنويه بالقصة كعامل من عوامل التهذيب وصورة يستخلص منها الانسان العظة والعبرة في دنياه ويحقق بها منطوق الاية الكريمة « افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، وآذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » .

وبلغ من اهمية القصة في القرآن انخص الله احدى السور بها فسميت (سورة القصص) وقد روى المفسرون الكثير عن فضيلة هذه السورة ، واورد الطبري في تفسيره عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ومن قرا (طسم القصص) اعطي من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق بموسى وكذب به ، ولم يبق في السموات والارض الا شهد له يوم القيامة : انه كان صادقا ان كل شيء هالك الا وجهه..

وابتدات (سورة القصص) بالقصة من قول الله « بسم الله الرحمن الرحيم ، طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، ان فرعون علا في الارض .. الخ » والى ان تذكر الاية مجيء موسى الى شعيب ، واخباره بما جرى عليه في قصته المعروفة مع فرعون وهروبه حين احس بانهم يطلبونه ليقتلوه ، فتقول الاية بعد ذلك : « فلما جاءه وقص عليه القصص » قال شعيب لموسى « لا تخف نجوت من القوم الظالمين » وزوجه ابنته على النحو الذي ورد في القصة .

وقد ورد ذكر القصة في ٢٥ موضعا من القرآن الكريم ، ويكفي مدى الاهتمام بالقصة في القرآن وكونها عاملا من عوامل الموعظة والارشاد والتهذيب ما جاء في قوله تعالى : « نحن نقص عليك احسن القصص بما اوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين » فكان الله بهذا قد جعل كل القرآن قصة .

وسورة يوسف : وهي قصة شائعة رائعة ، وقد بلغ في اهميتها كقصة ان رويت عن فضيلتها الروايات الكثيرة ، وفي (مجمع البيان) في التفسير عن ابي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (علموا ارقاءكم سورة يوسف فانه ايما مسلم تلاها وعلمها اهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت واعطاه القوة ان لا يحسد مسلما » .

وكان الواجب ان يعنى العرب من المسلمين بالقصة قبل غيرهم وان يعطوها الشيء الكثير من مجهودهم كما اعطوا الشعر وزيادة ما داموا يرون مثل هذا الاهتمام بالقصة من القرآن الكريم ، ولكن العرب كانوا قد تأخروا عن ركب الحضارة في النهضة الحديثة في كل شيء ما عدا الشعر ولم يلتفتوا الى مزية القصة الا متاخرا حين اتيح لهم الاتصال بالعالم الخارجي المتحضر عن طريق الدراسة والسياحة والتجارة ؛ ورأوا اهتمام العالم بها فاقبل المثقفون منهم على ترجمة الروايات والقصص القصيرة الى العربية ، وبدأ الجمهور يتذوقها شيئا فشيئا حتى اصبحت معروفة ، ومع ذلك فانها لم تزل قاصرة عن بلوغ القمة في كتابتها باشواط كثيرة .

***

ويعود الفضل الاول لممارسة القصة العربية بالاسلوب الحديث حسب الوقت الى سوريا ؛ فهي اول قطر عربي نبغ فيه القصاص العربي الاول وهو فرنسيس المراش ١٨٣٥ — ١٨٧٤ والمراش هنا حلبي المولد ، سوري الاصل وهو طبيب شاعر ، واديب كاتب ، درس العلم في باريس، وتأثر بالادب الفرنسي وثقافته ، وشعر بلذة القصة وعرف قيمتها ومنزلتها بين الفنون والعلوم الانسانية: فالف كتبا في مختلف المواضيع كالشعر والطب والاجتماع ، فهو بحق الرائد الاول للقصة العربية الحديثة ، ومن اشهر كتبه هذه « غابة الحق » وهي قصة تتضمن الكثير من الاراء العلمية والفلسفية ، والافكار الاجتماعية ، وقد طبعت ببيروت سنة ١٨٨١ .

وان رحلته التي قام بها الى باريس سنة ١٨٦٦ والتي سماها « رحلة الى باريس » هي الاخرى نمط من انماط القصة ، ومن اشهر ما وضع فرنسيس المراش روايته التي سماها « در الصدف في غرائب الصدف » .

وعلى ان رقعة سورية يومذاك كانت تشمل لبنان وفلسطين فقد رأيت اقتصار الاشارة على حدود سورية الحاضرة ما دامت هذه المجموعة من القصص التي اقدم لها تخص سورية المحدودة بالحدود الحاضرة ، وكان المنتظر ان تعقب المراش مباشرة خطوات واضحة ان لم تكن سريعة في ميدان القصة ، ولكن القصة ظلت في ركود او شبه ركود في سورية حتى حلول القرن العشرين ومرور بعض الوقت من هذا القرن ، حين دبت روح القصة في آداب هذا القطر .

وكما كان السبق لسورية في ظهور اول قصاص عربي للقصة الحديثة فيها فانه يخيل لي — اذا لم اكن واهما — بان اول ناد للقصة قد قام في سورية ايضا ، ففي الثلاثينات كان هناك في دمشق ناد للقصاصين وكان مبعث حركة ونشاط ؛ وعلى سبيل الفكاهة اذكر ان الشاعر احمد الصافي النجفي دخل مرة هذا النادي فقيل له على سبيل الدعابة : انك شاعر فما شانك واهل القصة حتى تدخل ناديهم ؟ فقال الصافي صح ما تقولون ، ولكني اصلح ان اكون موضوعا للقصة .

وهناك ظاهرة عجيبة في تاريخ القصة السورية وهي

زفـــــرة

تمسك قلبي بالحياة ، ولم اكن	اخاف ملاك الموت قبل مشيبي
فشا الضعف في جسمي فاطفا بسمتي	وهاج على عرس الشباب نحيبي
اذا عثرت رجلي اثارت هواجسي	وان خلجت عيني دعوت طبيبي
تحول زهر العيش عندي عوسجا	وصار قشيب الحسن غير قشيب
لقد عشت عن داري غريبا ولم ازل	اجر على درب الشقاء صليبي
فيا رب ان حم القضاء فلا يكن	ترابي في واد علي غريب !

بوانس ايرس ــ الارجنتين

زكي قنصل

ان النضج في كتابة القصة لم يبدأ تدريجيا كما بدأ في الاقطار الاخرى ولا سيما مصر ، وانما كان كانهمار المطر الذي لم يسبقه القطر ، وكاد المجيد من القصاصين والقصاصات يكونون من ابناء جيل واحد ، ولا بد ان يكون هنالك من علل تحتاج الى دراسة .

وظاهرة اخرى عجيبة ، وهي انه قد ظهر بين هؤلاء القصاصين السوريين من قفز بالقصة قفزة استحق بها ان يظفر بالصدارة بين قصاصي الاقطار العربية ، وان وجه العجب هذا ينحصر في الزمن القصير الذي نشأت فيه القصة السورية ، ولم يكن من العجب ان يظفر قصاصو اي قطر بمثل هذه الميزة لو كانت قد مرت اجيال طويلة على مزاولة القصة كما هو الحال في الاقطار الاوروبية المتحضرة .

وقراءتي لقصص بعض هؤلاء القصاصين قراءة متتابعة ، ومعرفتي لبعضهم عن كثب ، توحي الي بان ليس بين هذا البعض الذي عرفت وبين الاعتراف بهم كقصاصين لامعين يجيدون تصوير المجتمع بكل افكاره وهواجسه كما يجيده مشاهير القصاصين في العالم المتحضر ــ الا عناية خاصة توجهها السلطات لانعاش ادب القصة . وجمع شتات القصاصين والاهتمام بهم وبذل الجوائز لهم على سبيل التقدير والتكريم وليس على سبيل المسابقة ثم القيام بترجمة قصصهم الى اللغات الحية ، ونشرها في الاوساط الغربية والشرقية ، متخذة منها وسيلة تعريف لبلغ ما اجتاز هذا الشعب في مراحل المدنية التي تعبر عنها القصة ــ وليس غيرها ــ خير تعبير .

ومما لا شك فيه ان هناك قصاصين اخرين ضاقت هذه المجموعة عن استيعاب قصصهم فلا بد وان يأتي ذكرهم في مجموعة اخرى تلحق بهذه المجموعة على سبيل الاستدراك .

وجامع هذه القصص وناشرها (١) ، ومخرجها على هذا النحو تأليفا هو الاديب اللامع حسان الكاتب الذي كان له الفضل الكبير على الادب العربي عامة والادب السوري خاصة ، فقد سهل بمجموعته هذه لمؤرخي الفنون وللقارىء العربي الوقوف الكامل على مدى ما بلغت القصة في سورية عند ائمتها من النضج وتكامل العناصر ، حتى ليستغني كل قارىء بما يقرأ هنا عن اي مصدر ، واي بحث لتلمس القابلية ، والموهبة ، والاسلوب ، والهدف في القصة السورية عند المتصدرين الذين بلغوا الذروة وعند الذين اقتفوا آثارهم والذين لا يزالون في اول السلم ، وبهذا يكون حسان الكاتب قد وضع لنا في هذه المجموعة دراسة كاملة للقصة السورية بمختلف طبقات القصة وقصاصيها : وقام بخدمة من خدمات وزارة الاعلام في هذا الفن ، وكان له فضل السبق في هذا المجهود ، كما كان له فضل السبق فيما اخرج من اجزاء (للموسوعة الموجزة) التي لخص فيها اهم ما يحتاجه القارىء العربي من الثقافة العامة بابسط الوسائل وايسرها .

بغداد ــ كرادة مريم

جعفر الخليلي

(١) كان من المقرر ان تكون هذه الدراسة عن القصة مقدمة لكتاب « قصص سورية » .. الا ان غلاء الورق وارتفاع تكاليف الطباعة حال دون ذلك مما دفع صاحب هذا الكتاب الى تقديمه مخطوطا هدية الى المكتبة الظاهرية في دمشق ليكمل به هداياه التي بلغت ٢٢ كتابا مخطوطا .



رستم كيلاني

اللون الواقعي في قصص رستم كيلاني

بقلم الدكتور حامد حفني داود

استاذ كرسي الادب العربي بكلية الالسن

* * *

قبل ان نتحدث عن اللون الواقعي في قصص الاديب رستم كيلاني احب ان اشير الى ان عمر القصة القصيرة في ادبنا العربي المعاصر قد اشرف على الخمسين عاما : ذلك لان اول ما عرف من هذا اللون يعود الى الاعمال الادبية التي اصدرها الاخوان محمد تيمور ومحمود تيمور ؛ وان كنا نعتبر الثاني منهما هو الاب الشرعي للقصة القصيرة في مصر ، وان ما اصدره اخوه الاكبر لا يعدو من قبيل اللوحات الفنية التي كانت بمثابة الارهاص لمولد هذا الفن الجديد .

ولا يعنينا في هذه العجالة ما اثير من جدل حول المؤسس الحقيقي للقصة القصيرة وما قيل من آراء سجلناها في كتابنا (تاريخ الادب الحديث) ، فانه مهما يكن من امر فان محمود تيمور يعتبر الرائد الجاد لهذا اللون الجديد كما يعتبر الموجه الاكبر لهذا الرعيل من القصاص في مصر والبلاد العربية ؛ واذا قلنا مصر والبلاد العربية فانا نعني مولد القصة القصيرة في شرقنا الاسلامي، والا فان المولد الاول والريادة الاولى للقصة القصيرة في الاداب العالمية تعود الى اواسط القرن التاسع الميلادي ، اي قبل مولدها عندنا بما يقرب من سبعين عاما ، ولعل جي دي موباسان الفرنسي هو اول الرواد لهذا النمط من الفن القصصي ، وكان يقابله ادجار الان بو في امريكا ، وتشيكوف في روسيا .. وهؤلاء الرواد الثلاثة هم نقطة البدء في تاريخ القصة القصيرة في العالم على الرغم مما بينهم من اختلاف في التناول والاداء .

ومن هذا الرافد الشرقي الذي ظهر في اوائل العشرينات نهل قصاصنا المعاصرون : وما زالت القصة القصيرة تتدرج وتنمو وتكتمل حتى تم لها النضج والاكتمال والتمصير في اعمال محمود تيمور ، ومن ثم صارت لدينا خلفية تاريخية ضخمة تهيىء عوامل النضج والانطلاق القصصي للاديب رستم كيلاني الذي اخذ يحاول تجربته الاولى في الخمسينات من هذا القرن ولكنه لم يخرج الى الناس بباكورة اعماله الا في اواسط الستينات .

وهنا احب ان اشير الى أن الكاتب وهو يعالج هذا اللون الفني وجد نفسه وجها لوجه امام ثلاثة نظريات خطيرة تعالج في ضوئها القصة القصيرة في مصر .

النظرية الاولى : واصحابها يعالجون قصصهم في ضوء اللون الرومانسي ؛ وتمتد جذورها الى جي دي موباسان .

النظرية الثانية : وتمثل حلقة الاتصال بين اللون الرومانسي والاتجاه الواقعي ، وهو اللون الذي ظهر بشكل واضح في قصص تيمور ، وقد عني اصحاب هذه النظرية بتحليل الشخصيات اكثر من عنايتهم بالاحداث والوقائع.

النظرية الثالثة : وقوامها الواقعية المحسوسة وحدها ، وهو اللون الذي نلاحظه في اكثر قصاصنا المعاصرين .

واديبنا رستم كيلاني آثر في معاناته القصصية اللون الواقعي الذي يمثل في الحقيقة المرحلة الثالثة من تطور هذا الفن .

وحين نضع اعماله القصصية على بساط النقد الموضوعي نستطيع ان نقسم هذه الاعمال الى مرحلتين :

المرحلة الاولى : وتبدأ من سنة ١٩٥٦ وتنتهي اخر عام ١٩٦٧، وفيها اخرج «دموع الذكرى»، «هكذا التقينا»

المرحلة الثانية : وتضم اعماله في عام ١٩٦٨ ، ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ وفيها اخرج « الجدران الباكية » ، و « رفيق العمر » ، و « قلادة من شوك » .

ولا ندري بعد ذلك ما يطويه له المستقبل من مفاجآت سارة في تطور القصة القصيرة ، وما سيخرج علينا به من ملامح جديدة في هذا الفن .

ونحن حين ننظر نظرة موضوعية فاحصة لاعماله القصصية في هاتين المرحلتين نلاحظ انهما تختلفان كل الاختلاف، وان كانت وجوه الاختلاف قد لاتبدو واضحة لغير المعمقين النظر في النقد القصصي .

فالاديب رستم كيلاني في مرحلته الاولى كان بمثابة

فترة المزاوجة والمواءمة بين الواقعية والرومانسية . كما كان يزاوج بين السمات الوجدانية والسمات الواقعية وكانت غلبة العاطفة عنده تحمله احيانا على الافصاح عن اهداف ما يقص علينا قبل ان تأخذ العقدة القصصية شكلها الذي يريده . ولعل ذلك يرجع الى انطباعات الاديب باعمال من سبقوه من رواد القصة ، ولانه كان لا يزال يمثل في عمله القصصي مرحلة المحاكاة الفنية وانطباعاته باعمال استاذه محمود تيمور ، وانت حين تقرا معي شيئا من هذه القصص الاولى تدرك عن كثب هذه الخيوط العاطفية التي كانت تظهر ما بين آن واخر في قصصه ، واقرا ان شئت قصة « الضحية » او « هكذا التقينا » فانك لا شك تلحظ معي بوضوح شديد الومضات العاطفية تلمع بين سطورها وتتألق احيانا الى درجة تقرب من اللون الرومانسي الحزين .

اما المرحلة الثانية ، فان الأديب يخرج الينا بطراز جديد مكتمل من القصص القصيرة « الجدران الباكية » ، « رفيق العمر » ، « قلادة من شوك » .

لقد تحول الاديب في اقل من خمس سنوات تحولا عجيبا ، ذلك التحول ان دل على شيء فانما يدل على ما كنت احس به من صدق التجربة القصصية في نفس هذا القاص ، ومدى اعتمال هذه العوامل الفنية في نفسه في تطوير القصة القصيرة .

ولقد كان هذا التحول واضحا جليا على الرغم من قصر هذه الفترة وقربها من مطلع حياته القصصية ، وانما نراه يتحول من النسج التصويري والاهتمام البالغ برسم اللوحات وتجلية الشخصيات الى هذا النمط الجديد الذي عني فيه الاديب بابراز العقدة القصصية التي اخذنا نلحظ عنايته بها في المرحلة الثانية ، فظهرت جلية في مجموعاته القصصية « الجدران الباكية » و « رفيق العمر » و « قلادة من شوك » .

كما نلحظ في هذه الفترة جانبا اخر واضحا بارزا فيما استشق من صلات دموية بين فن القصة القصيرة وبين المذهب الواقعي ، ذلك المذهب الذي يرى ان الادب لا يتم لم الاستواء ولا يكمل له البناء من حيث الاطار المضمون الا اذا كان الادب صورة حقيقية لانعكاس الواقع في نفس الاديب . عند ذلك راح قاصنا يقارب ما بين قصصه القصيرة وبين واقع الحياة ويحاول جادا في الربط بينهما ، وانك لتقرا مجموعته القصصية « قلادة من شوك » (١) فتلمس هذا الربط العجيب بين الاسلوب القصصي وبين واقع الحياة ، وتقرا هذه المجموعة فتحس تماما كأن القاص دائما يسرد على قارئه احداثا وقعت بالفعل ، فان لم يكن وقعت بالفعل فلا اقل من ان تكون في عداد الواقع تماما . ومن هذا كان اديبنا رستم كيلاني واقعيا في هذه المجموعة .

وهو في هذه المرحلة من قصصه الواقعية لم يكتف بالاطار الذي رسمه في مجموعته الاولى ، حين نراه يحاول في هذا النمط الواقعي الجديد علاج ما يمس حياتنا الاجتماعية من مشاكل يومية ، وهو عين ما نراه واضحا في قصة « قلادة من شوك » (٢) ، فهو في هذه القصة يصور تصويرا واقعيا يكاد يكون مباشرا : قصة الفتاة المثقفة التي تزوجت بمحامي الشركة ، واكتشفت ان زوجها خدعها حيث كان متزوجا باخرى قبلها وله اولاد ، وفي الوقت الذي حضها على اتمام تعليمها ، قبل ان يتكشف لها امر زواجه السابق وكيف وقف الى جانبها على الرغم مما خدعها به حتى اتمت تعليمها وشقت طريق حياتها ، فان مثل هذه القصة تعتبر من صميم حياتنا الواقعي ولا تخلو منها حياتنا اليومية ، والشيء الجديد في واقعية القاص في هذه المرحلة انه يرسم صورة الواقع ويحلل المشكلة ولا يكتفي عند ذلك بل يشير من طرف خفي الى حل المشكلة التي يعرضها .

ورستم كيلاني في هذه المرحلة يضيف الى ما ذكرنا العناية بالهدف ، ولسنا نقصد من كلمة الهدف مجرد المفهوم اللغوي من كلمتي (الادب الهادف) بقصد ما نعنيه من تحليل المشكلات في حياتنا ، فهو يحاول دائما ان يكشف عن الجانب المضيء ، او بمعنى اخر يحاول ان يبين في قصصه الواقعية ان اكثر ما ينجم من مشكلات اجتماعية دائما يجيء من سوء ظن الانسان باخيه الانسان ، وتفسيره الاحداث دائما على انها شر ما دام ظاهرها يدل على الشر ، فرستم كيلاني يستحثنا عن طريق القصة على الا نكتفي بظواهر الاشياء وان نتريث في الامور ونتعمق المشاكل قبل اصدار الحكم ، فربما كان خيرا ما كنا نظنه شرا ، وانت تلحظ ذلك الجانب الهادف في قصته « براءة .. ولكن » (٣) حين يعرض امامنا قصة « سعاد » التي ادركها الاغماء المفاجيء ، وحين حملها « مراد » ذلك الشاب الماجن المستهتر سيء السلوك الى منزل ابيها ، وحين سبب هذا الموقف المزعج فسخ خطوبتها من « صلاح » ولا سيما بعد ان اعلن طبيبه ان شيئا قد حدث ، والكاتب الواقعي هنا بفضل صدقه ولباقته والتزامه حل المشكلات في قصصه استطاع ان يجعل من قصته درسا في الاخلاق والتريث في الامور حين ادار مجرى القصة الى الجانب المضيء ، وحول دفتها الى هذه النهاية الهادفة ، فجعل — في حبكته القصصية — والد الفتاة يرفع أمر ذلك الماجن « مراد » الى القضاء والنيابة ، وهكذا يسوق حلقات القصة حتى

(١) صدرت عن دار الكتب الجامعية بالقاهرة ١٩٧٠ .

(٢) قصة قلادة من شوك — نشرت في مجلة الاديب (اغسطس ١٩٦٩)

(٣) قصة براءة .. ولكن — نشرت في مجلة الاديب (ديسمبر ١٩٦٩)

صنين

صنين يا شيخ الجبال وموئــلا للخائفــين
خشعت لك الابصار من اشتات قوم غابرين
كم من عيون شاهدت كهفــا لماوى الآمنـين
وطئت صخورك جند اشبال غزاة قاهرين
فهزئـت بالاجيـال والاقيال رأس الفاتحـين
ظلموا وجاروا وشتتوا وسبوا بيوت الهانئين
سفكوا الدماء وليس فيهم خشية كالراحمين
تركوا لنــا خبرا وذكرا لا يسر الباحثــين
فطوتهم الارض التي وطئـوا ثراها ظالمــين
لو ينطـق الصخر الاصم لفشا بسر الغادرين
اشلاء جنـد بعثرت وغـدت طعام الآكلـين
ماذا ترى ربح الغزاة بقهر قـوم راغديــن
تركوا لنا آثـارهم تتلوا حديـث الطامعين
مـلك بـلا عـدل هباء باطـل في العالمـين
لا يبقى الا وجه ربــك في يـد الابديــن
لا تظلموا يا قوم ان الله حق لا يجيب الآثمين
نطق الكتاب بحكمه بطل فعــال الفاتحــين

عيسى ميخائيل سابا

تنتهي الى الطبيب الشرعي الذي يثبت بعد الفحص الدقيق عفاف « سعاد » وان ما حدث لا يعدو تمزقا في غشاء البكارة تسبب عن وقوعها المفاجىء على درج السلم بعد هذا الاغماء الشديد .

وهكذا نلحظ في قصص رستم كيلاني اللون الهادف من القصص الواقعي ذلك اللون الذي يشير الينا من طرف خفي الا نتعجل الاحكام في تفسير ما يقع من أحداث الحياة اليوميـــة .

ولامر ما قد يظن ظان بان القاص دائما يعمـــد في قصصه ان تنتهي بالنهاية السعيدة ، ولكن النهاية السعيدة ليست هدف الكاتب الاول في قصصه الواقعي ذلك لان اللون الواقعي لا يستلزم النهاية السعيدة او المحزنة لان الكاتب يتصور الواقع بجميع الوانه واشكاله ، والواقع محتوى واسع فيه الخير والشر ، ولكن محاولة «رستم» توجيه قصصه هذه الوجهة الهادفة والدعوة الى التريث في تفسير ما يقع من احداث الحياة هي التي تحمل الناقد السطحي الى ذلك التفسير فيظن ان الكاتب يعمـــد الى النهاية السعيدة عمدا وان يجعلها دستوره في ختـــام قصصه .

وملحظ سادس لا ننسى ان نشير اليه في هـــذه المرحلة من حياته القصصية ذلك هو تحول الكاتب مـــن الاسلوب المباشر الذي كنا نالفه في مجموعته « دمـــوع الذكرى » الى الاسلوب غير المباشر الذي ظهر بشكل ملفت في مجموعاته القصصية الجديدة : (الجدران الباكيــة ، رفيق العمر ، قلادة من شوك) ، فان رستم كيلاني في هذه القصص لا يستعجل النتائج ولا يذكر الحلول ذكرا مباشرا بل يترك لقارئه فرصة التطلع الى النتائج او يشير اليها من طرف خفي ، وهذه سمة بالغة الاهمية في الحبكة القصصية ولا يكاد يجيدها غير المتمرسين بهذا الفن .

واخيرا هذه عجالة موجزة احب أن اسجلها للاديب رستم كيلاني هي في نظري تعتبر نقطة تحول في اسلوبـــه الواقعي الملتزم الهادف في الوقت اللذي اعتبر فيه هـــذه الانماط الجديدة ـ بلعتباري من مؤرخي الادب الحديث ـ من اخص السمات في اسلوب القصة القصيرة في ادبنا العربي المعاصر .

القـــاهرة — حامد حفني داود



محمد العدناني

مقدمة «معجم عثرات الادباء»

بقلم محمد العدناني

***

ان انتشار «معجم الاخطاء الشائعة» ؛ الذي صدر عام ١٩٧٣ ، في جل بلاد العالم ، والاقبال الشديد على اقتنائه ، وتشجيع اعضاء المجامع العربية اللغوية لي ، وكبار ادباء الضاد والنقاد ؛ ونظرهم اليه بعين الرضى في جميع ما كتبوه في الصحف والمجلات ، وما قالوه في الاذاعات العربية والاجنبية ، غمر نفسي بالغبطة ، وانطق لساني بالشكر ، وحفزني الى العمل ساعات طويلة متواصلة في النهار وبعض الليل ؛ لتاليف « معجم عثرات الادباء » هذا ، معتمدا على ٤٨ مصدرا جديدا ، عدا الستة والستين مصدرا ، التي اعتمدت عليها في تاليف « معجم الاخطاء الشائعة » : راجيا ان يفوز برضى امتي الخالدة ، ولغتي المحبوبة : ومجامعنا اللغوية الاربعة ، والمكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي بالرباط ، وادباء العالم ونقاده من العرب والمستعربين .

وانا لست سوى حلقة صغيرة في سلسلة كبيرة وطويلة من رجال نذروا نفوسهم لخدمة لغتهم ، وتصحيح ما يجري على السنة الناس من اخطاء لغوية : حبا في ابقاء الحياة متدفقة بقوة في شرايين الضاد ، ومحاسبة من يلحن فيها : او يحاول الحط من شانها محاسبة عسيرة ، لان الاساءة الى الضاد هي اساءة الى قوميتنا وعروبتنا .

ورد في كتاب في احدى مكتبات مدينة (وليمسبورغ) الاميركية ، ان احد اعضاء مجلس النواب الاميركي (الكونغرس) . قال : « اننا نضع القوانين لمعاقبة المجرمين الذين يسرقون ويقتلون ، فلماذا لا نضع القوانين لمعاقبة الذين يفسدون اللغة ؟ »

فاذا صدر هذا القول في بلد ؛ تكثر فيه المعامل والالات التي بنى عليها مجده الشامخ : فماذا يجب علينا – نحن العرب – ان نفعل ، ولم يبق لنا من ماضينا العظيم سوى هذه اللغة ؛ بعد ان اصبحنا اكثر من عشرين دولة عربية ، كانت في الماضي دولة واحدة ؟ فهل نترك اللغة العربية لاعدائها الكثر ، الذين يحاولون تحطيمها ؟

ان اهمية اللغة العربية ، وكونها من اهم العناصر الاساسية لتوحيد الامة العربية ؛ هي التي جعلت المستعمرين والدول العنصرية يحاولون القضاء عليها : كما فعلوا في الجزائر المجاهدة ، خلال ١٣٢ عاما من الاستعمار الغاشم ، والتجهيل ، والابقاء على الامية وسلب الثروات ظانين انهم بما فعلوه في الجزائر ، وليبيا ، وتونس والمغرب ومصر ، وفلسطين وبقية الشقيقات العربيات ، يستطيعون السيطرة على امتنا الخالدة ، التي لا يكادون يغرقونها في غياهب محيطات الجهل والفقر ، حتى تظهر لهم من بعيد على سطح الخضم ، منطلقة نحو شاطىء السلامة والخلود والمجد .

وكل من يتحامل على اللغة العربية ، ويجحد فضائلها الكثر ، ومجدها الاثيل ، ليس سوى عدو لدود للامة العربية ، عليها ان تنبذه من بين ظهرانيها نبذ النواة .

لقد وضعت مقدمة « معجم الاخطاء الشائعة » في صدر هذا المعجم ، لانني اتبعت خطة تاليف « معجم الاخطاء الشائعة » نفسها ، في تاليف شقيقه التوام « معجم عثرات الأدباء » ؛ هذا . وانا لا احب ان افرض على من يقتني هذا المعجم ان يقتني شقيقه ايضا ، ولا ارغب في ازعاج من يقتني المعجمين – حين يقرأ هذا المعجم – بالرجوع الى « معجم الاخطاء الشائعة » لقراءة مقدمته بين الحين والاخر ، فاوفر بذلك عليه عناء البحث في معجمين بدلا من معجم واحد .

وانا ممن يدعون الى استعمال الكلمات المولدة دون تردد ؛ وهي الكلمات المستعملة بعد اواخر القرن الثاني الهجري في الامصار ، وبعد اواسط القرن الرابع الهجري في جزيرة العرب . وقد جاء في مختصر العين للزبيدي صاحب التاج : « المولد من الكلام هو المحدث » . وقسم كبير جدا من لغتنا مولد ، فاذا انكرنا استعمال المولد ، نكون قد انكرنا استعمال القسم الاكبر من الكلمات ، التي يستعملها اليوم كتابنا وشعراؤنا ، ونكون قد قتلنا الاف الكلمات التي عاشت على السنتنا اكثر من عشرة قرون .

ومن شاء ان يقرأ بحثا وافيا عن المولد ، عليه ان يرجع الى الباب الحادي والعشرين من المزهر للسيوطي (الجزء الاول ، صفحة ٢٠٤) .

اما الكلمات الاعجمية المعربة ، فانا اؤيد الجواليقي وابن الجوزي وسواهما من أئمة العربية ، الذين قالوا ان الكلمات الاعجمية، التي عربها العرب، وحولوها عن الفاظ العجم الى الفاظهم تصبح عربية .

من منا يستطيع ان ينكر على القرآن الكريم استعماله الكلمات الفارسية الاصل : كاباريق، وسجيل، واستبرق. والرومية كقسطاس ، وصراط ، وشيطان ، وابليس . والحبشية كارائك ، ودري ، وكفلين (نصيبين) . والسريانية كسرادق ، ويم، وطور، وربانيين . والزنجيتين حصبا وسريا ؛ والعبرانية فوما ، والتركية القديمة غساقا والهندية مشكاة ، والقبطية : هيت لك .

وقد احصى السيوطي تسعا وثمانين كلمة اعجمية اخرى في القرآن الكريم . ويقول عبد القادر المغربي في كتابه « الاشتقاق والتعريب » ، ان كلمة مصحف ، التي سمي بها القرآن الكريم نفسه ، معربة عن اللغة الحبشية، وهي مشتقة من صحف ، ومعناها بالحبشية : كتب . وكلمة القاموس التي اطلقها الفيروزابادي على معجمه هي اعجمية معربة ، ومعناها البحر او معظم مائه .

وقد اخرج ابن جرير بسند صحيح عن ابي ميسرة التابعي الجليل قوله (صلى الله عليه وسلم) : « في القرآن من كل لسان » .

وورد في الحديث والسنة الشريفة كثير من الكلمات الدخيلة المعربة ، منها : الكلمات الفارسية : سرقة (وهي القطعة من جيد الحرير) ، والطازجة ، والكركم (الزعفران) ، والماخور ، والمرزبان ، والقهرمان (الخازن والوكيل) ، والخربز (البطيخ) ، والقيروان (الجماعة والقافلة) . ومنها الكلمة الحبشية يدرقلون (يلعبون ويرقصون) ؛ والنبطية دحل (خاف) . فهل نستطيع ان ننكر على النبي العربي(صلى الله عليه وسلم) استعماله هذه الكلمات الاعجمية ؟

اما النهج الذي سرت عليه في هذا المعجم ، فهو كالاتي :

لم احد عن الاسلوب : الذي انتهجته في تاليف « معجم الاخطاء الشائعة » : الا في أمور قليلة ، سأذكرها في هذه المقدمة .

وانا في « معجم عثرات الادباء » هذا ، لم ارغب في حصر تفسي في نطاق صحة الكلمة وما تدل عليه ، بل جعلت انصرافي الى التحقيق اللغوي ، في السنوات الطويلة الاخيرة من عمري ، وسيلة الى صحة اللغة ــ قدر استطاعتي ــ في شعري ، ونثري الذي يضم النقد ، والقصة ، والاقصوصة ، والمقالات الادبية ، والاجتماعية، والقومية ، والتاريخية ، والتوجيهية ، وعشرات الكتب ذوات الموضوعات المتنوعة والمترجمة الى العربية .

قد يكون للحرف اكثر من حركة واحدة ، مثل : دجاجة ، فاكتفيت بذكر اكثرها شيوعا (دجاجة) بفتح الدال ، في بعض الاحيان .

واذا اجتمعت كلمتان فصيحتان ، تستعمل العامة احداهما ، وتهمل الاخرى ، فان التي تستعملها العامة هي العليا عندي .

واستشهدت أحيانا بأبيات ، دون ان اذكر اسم الشاعر ، لانني لا اعرفه ، ولان المصدر الذي اخذته منه لم يذكره .

وكتبت (المئة) دون الف بعد الميم المكسورة ، لانني لا اشجع على كتابتها بالالف . (راجع معجم الاخطاء الشائعة) .

وحاولت في معظم الاحيان ــ حين تستعمل في المادة الواحدة كلمتان أو اكثر ــ ان اقدم الكلمة التي اراها افصح واعلى في عنوان البحث مثل : المعجمات ، والمعاجم والمعاجيم .

وحين يكون للكلمة معنيان ، احدهما اشهر من الاخر ، أو أقوى منه ، اضع الاشهر والاقوى اولا في عناوين المواد ، مثل (ضربة لازب) التي قدمتها على (ضربة لازم) .

وهنالك مواد قليلة ترددها افواه المذيعين ، وتخطها اقلام كتاب الصحف كثيرا في هذه الايام ، رأيت ان اذكر الخطأ فيها وتصويبه ، حرصا مني على تصحيح جميع عثرات الافواه والاقلام ، واراحة لضميري ، وان كان عمالقة الادب عندنا يرونها هفوات بسيطة ، يجب أن لا يرتكبها مذيعونا ورجال صحافتنا .

اعدت في هذا المعجم كتابة مواد قليلة جدا ظهرت في « معجم الاخطاء الشائعة » بعد ان زدت عليها شواهد جديدة ، أو بعد ظهور رأي حديث عنها من احد مجامعنا .

واوردت في بحوثي المراجع اللغوية بحسب التسلسل التاريخي لوفاة مؤلفيها ، بادئا بأقدمها ، ومنتهيا باحدثها .

كلما وجدت عدد المخطئين لاستعمال احدى المواد قليلا ، اقتصرت على ذكر بضعة مصادر لتصويب استعمالها . وحين يكثر عدد المخطئين لكلمة ليست خطأ، او المصوبين لكلمة ليست صوابا ، ازيد عدد المصادر التي تؤيد رأيي ، وتدحض آراءهم ؛ حتى اذا رأيت المصادر التي يعتمدون عليها كثيرة ؛ لذت بجميع المصادر المتوافرة لدي (وهي وافرة والحمد لله) والتي تدعم رأيي وتنقض آراءهم ، لاقنع القارىء بصواب رأيي ، وخطأ آرائهم .

واكتفي أحيانا بذكر قليل من المصادر، عندما اراها مجمعة على رأي واحد ، فاريح بذلك القارىء من مراجعة عدد كبير من المصادر ، دون ان يكون في حاجة الى ذلك .

وحاولت في هذا المعجم اللجوء الى الايجاز ــ ما

استطعت الى ذلك سبيلا – وذكر التعريف الواحد ، او المعنى الواحد مرة واحدة ، متلوا باسماء جميع ما لدي من المصادر التي ورد فيها : او جلها ، او بعضها ؛ وفقا لدرجة الشك والغموض اللذين يكتنفان تلك المادة ؛ بدلا من ذكر خلاصة ما ذكره كل معجم ؛ لابتعد عن التكرار ، ضنا بوقت القارىء : الذي اصبح الان من الالماس ، بعدما كان من الذهب .

وتقيدت بما اجمعت عليه المعجمات ، وبعض ما اقرته المجامع ، دون ان آبه :

ا – لما نسب الى بلغاء العرب في صدر الاسلام عندما اشك في صحة الرواية عنهم .

ب – وما قاله ائمة الادب العربي في القرون العشرة الاخيرة ، اذا لم اجد معجما موثقا يدعم آراءهم .

ورايت من الحكمة اهمال جميع ما لم تذكره المعجمات ولم تقره مجامعنا الاربعة ، او احدها ؛ منعا للفوضى من ان تضرب اطنابها في ميدان لغتنا التي تفديها بالنفس والنفيس .

ونقلت مادتي « لا يخفى على القراء » و « اعتقد » من معجم الاخطاء الشائعة الى هذا المعجم ، لان القارىء يحتاج الى الرجوع الى هاتين المادتين ؛ في المواد التي يجوز فيها ان يحل حرف جر مكان اخر ، والمواد التي يشرب الفعل فيها معنى فعل اخر . وهذا يجعلنا نحول دون تكرار ما جاء في القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وما قاله الكسائي ، واكثر الكوفيين ؛ وبعض البصريين ، وابن جني ، وابن سيده ، وابن السيد البطليوسي ، وابن مالك النحوي ، وابن هشام الانصاري ، ومصطفى الغلاييني .

هنالك مواد كثيرة مبهمة في معجماتنا ، يكتنفها التشويش والغموض في كثير من الاحيان . وقد حاولت جهدي ، في هذا المعجم ، جلاء الغموض الذي لفها بارديته الصفيقة ، بعد ان اذكر جل ما قالته المعجمات عنها من متناقضات ، لاخفف عن الادباء المحققين عناء البحث عن حقيقة المادة الواحدة ساعات طوالا ، او اياما ، واعرضها عليهم صحيحة واضحة ، دون لف او دوران ، ودون ان اترك بحسب اجتهادي ادنى شك يساور الباب القراء .

لا اذكر خلاصة بحوثي في نهاية مادة ما : الا اذا كانت الاراء عنها متضاربة في المعجمات ، والخلاف شديدا بين ائمة اللغة ، لكي ابدد – قدر استطاعتي – سحب الغموض في سماء ذهن القارىء في نهاية المطاف .

ابحث عن المادة احيانا في عشرات المصادر ، التي قد تربو على خمسين مصدرا ، ولكنني لا اذكر الا اسماء المصادر التي اجد فيها جزء المادة الذي ابحث عنه ، وقلما يزيد عددها على عشرين ، او بضعة عشر مصدرا ، واكتفي احيانا بالرجوع الى مصادر قليلة ، حين ارى الاجماع منعقدا على الصورة التي انشدها .

هنالك معجمات عثراتها غير قليلة ، فاذا انفرد احدها ؛ او اثنان ، او ثلاثة منها بذكر مادة ما : لجأت الى معجم او اثنين من المعجمات الموثوق بها كالصحاح ، والاساس ، واللسان ، والمصباح ، والتاج . والمد ، والمعجم الكبير واشباهها . فاذا لم اجد تلك المادة في احدها ، انكرت صحة المادة ، ولجأت الى مجامعنا ؛ مستنيرا برايها ؛ او مقترحا عليها الموافقة على استعمالها ، اذا وجدت ذلك ضروريا .

ان القرآن الكريم ؛ والحديث الشريف الصحيح ؛ ومعجم الفاظ القرآن الكريم ، وخلق الانسان لثابت الكوفي ، والفاظ ابن السكيت ، وادب الكاتب لابن قتيبة والالفاظ الكتابية للهمذاني ؛ والاضداد لابن الانباري ؛ وامالي القالي ، والبيان والتبيين للجاحظ ، والكامل للمبرد ، واسماء الاشياء للعسكري ، ومقامات الهمذاني ، وشرح الحماسة للمرزوقي ، وفقه اللغة للثعالبي وشرح المعلقات للزوزني ، وشرح الحماسة للتبريزي ، ومفردات الراغب الاصفهاني ، ومقامات الحريري ، واساس البلاغة للزمخشري ، ومغني اللبيب لابن هشام الانصاري ، وتعريفات الجرجاني ، ومزهر السيوطي ، وشفاء الغليل للخفاجي ، وكشف الطرة للالوسي الكبير ، ومستدرك المعجمات لدوزي وما شابهها من المصادر ، هي مصادر لغوية موثقة عندما استشهد بوجود احدى المواد فيها ولكنها ليست معجمات لغوية كاللسان والتاج تنشد فيهما وفي سواهما من المعجمات كل المواد اللغوية ، ونتوقع العثور عليها فيها . وهذا يحملني على اهمال اللجوء اليها احيانا ، لاثبات صحة ما اورده من المواد ، لانني لا اجد جميع المواد فيها ، دون آن تحق لي محاسبتها على اهمالها ذكرها ، كما حاسبت المعجمات الاخرى في معجمي المخطوط « عثرات المعاجم » .

واكتفيت في المعجم هذا بذكر اسماء المراجع ، دون ان اذكر ارقام الصفحات التي استقيت منها المواد ، لان هذا معجم لغوي وليس كتابا ادبيا .

وحملني احيانا حب توفير الوقت للقارىء ؛ والتركيز على المعنى ، على ان اذكر مصادر كثيرة ، تورد معنى من المعاني ، سائدا في تلك المصادر جميعها ، ومرورا بالفاظ قد تختلف اختلافا يسيرا بين مصدر واخر : اذا كان المعنى هو هدف التصويب . اما اذا كان الخلاف على المبنى ، فانني اتقيد تقيدا تاما بالالفاظ التي انقلها ، والتي تكون متشابهة في المصادر جميعها .

وقد اضع – تجنبا لارهاق منضد الحروف ، وتلبية لرغبة الناشر – حركة واحدة على حرف ، يجوز أن تكون له حركة ثانية ، مثل : صبيان ، التي يجوز أن تكون الصاد فيها مضمومة ايضا ؛ ومثل : جمد الماء وجمد ، والصبر والصبر .

وحين اقول : ويخطئون كذا ، او : ويقولون كذا ،

اعني ان بعض الادباء هم الذين يخطئون قول كذا . او هم الذين يقولون كذا ؛ ولا اعني ـ طبعا ـ جميع الادباء .

وهنالك نصوص تستشهد بالايات القرآنية الكريمة؛ دون ان يذكر فيها اسم السورة ورقم الاية، اللذين ذكرتهما في المتن ؛ وهو من حق المؤلف ، وكان علي ذكرهما في الحاشية ، ولكنني اثرت وضعهما في المتن ، اختصارا لوقت القارىء ؛ وابقاء على تركيز ذهنه .

وقد يطلق احد المجامع اسمين على مسمى واحد . وانا قد اختار احدهما ، لانه مالوف ، ويسهل على الذاكرة اختزانه ، واهمل الاخر لانه غير مالوف ، او لان هنالك صعوبة في ايجاد صلة بين لفظه ومعناه .

واستشهد ببيت ، او جملة فيهما كلمة او كلمات : قد يجهل معناها ؛ دون ان اذكره في بعض الاحيان ، لانني اترك امر البحث عنه للقارىء الاديب ، اعتمادا على نشاطه واقتصادا في العبارة .

وبذلت اقصى جهدي لتزويد هذا المعجم بالمواد التي دار النقاش حول تخطئتها او تصويبها في مجامعنا ؛ وخارج مجامعنا بين قمم رجال اللغة عندنا واشهد انني استطعت اقتناص جلها، لان الوصول اليها جميعها مستحيل لكثرتها، وولادة اخطاء كثيرة جديدة دائما ، ككلمة تحجيم ، التي ولدت ابان الحرب الاهلية الطاحنة في لبنان عامي ١٩٧٥ و ١٩٧٦ ، لتقليص حجم القوة الفدائية الفلسطينية ، فاجهضت الالسنة والاقلام كلمة تحجيم ، التي خطاتها في هذا المعجم ، وذكرت ما رايت انه الصواب .

وهنالك كلمات في اللغة العربية ارى ان نجتنب استعمالها ، وقد اهملت ذكرها في معجمي هذا ، مع ان المعجمات تقول ان استعمالها صحيح لغويا ، كقولنا : جامعت فلانة على امر كذا . ومعناه : اجتمعت معها على ذلك الامر . فهنالك عدة افعال ، نستطيع ان نستبدلها بالفعل (جامع)؛ وتعطينا المعنى الذي نريده، دون ان نخجل من التفوه بها ؛ كقولنا : اتفقت معها ، وايدتها ، ورايت رايها ، ووافقتها الى اخر ما هنالك من افعال كثيرة في اللغة العربية ، تؤدي المعنى نفسه .

وفي اللغة العامية عدد كبير من الكلمات ، التي طرا على حروفها تغيير طفيف ابعدها عن الفصحى ؛ فظنناها عامية ؛ ولو انعمنا النظر في اصولها ، او حروفها ؛ او حركاتها لراينا ان ذلك التغيير اليسير ؛ الذي طرا عليها ، جعلنا ننفر من استعمالها ، ككلمة سباط (الحذاء) مثلا ؛ ليست ماخوذة من الكلمة الاسبانية Zopatos بل هي عربية محرفة عن (السبت) ، وهو كل جلد مدبوغ .

فعلينا البحث عن تلك الكلمات ، واستعمالها بعد ارجاعها الى اصولها ؛ لنردم جزءا من الهوة التي تفصل بين الفصحى والعامية .

وانا في هذا المعجم ؛ وفي توامه « معجم الاخطاء الشائعة » لا اؤيد استعمال الكلمات العامية ، كما خيل الى بعض النقاد ؛ الذين قراوا مقدمة المعجم الاول، ولكنني اؤثر استعمال الكلمة الفصيحة ؛ التي تتفوه بها العامة على الكلمة الفصيحة ، التي تابى العامة استعمالها ؛ او لا تستحسنه .

وصححت حركات عدد قليل من اسماء البلدان ، واسماء الاشخاص : التي يعثر كثير من خطباء المنابر ، ومذيعي التلفزيون والاذاعة ، حين يخبطون حركاتها ، متوخيا من وراء ذلك ، ارشاد بني قومي الى سبل الكمال، مهما كانت ضيقة ومتشعبة .

وفي المعجم هذا بحث مفصل عن الاضداد ، دعوت فيه الى اختيار احد المعنيين المتضادين دون الاخر ، لاسباب وجيهة ذكرتها . وهذه الدعوة لا تعني انني اخطىء من يستعمل المعنى الاخر ؛ غير المختار ، وغير المالوف ، ويهمل المختار والمالوف؛ لان هذا من شان مجامعنا اللغوية التي ارجو ان تصبح مجمعا واحدا .

وعندما اذكر كلمة « التاج » اعني بها معجم « تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي » ولا اعني كتاب « التاج في اخلاق الملوك للجاحظ » .

وفي الختام لا بد لي من ذكر الامور الاتية :

انا لا اشك في ان بعض ادبائنا يعرفون قسما كبيرا من الاخطاء ، التي ذكرتها في هذا المعجم ، او يستطيعون الوصول الى ما وصلت اليه من حقائق لغوية، بعد البحث في عشرات المعاجم ، والمصادر الادبية، اذا كانت في متناول ايديهم ، كما فعلت انا . ولكنني أعلم انني وفرت عليهم عناء البحث عن المادة الواحدة ساعات حينا ، واياما في اكثر الاحيان ، تاركا لهم تحقيق مواد اخرى كثيرة ، لم يتح لي تحقيقها ، او العثور عليها لتحقيقها .

ولا اشك ايضا في ان الكثيرين من كتابنا يجهلون صواب القسم الاعظم من الاخطاء التي صححتها . وفي الحالين ارجو ان يجد جميع القراء في هذا المعجم مادة، يفيدون منها في فترة قصيرة من الزمن ، في عصر السرعة المجنونة ، الذي نحن فيه الان .

ويقولون ان هذا المعجم ، وشقيقه معجم الاخطاء الشائعة : الذي الفته قبله . هما اول معجمين من نوعهما في اللغة العربية : فشكرا لله عز وجل ؛ الذي قدر لي ان اكون اول من الف معجما عربيا في الاخطاء اللغوية ، كما قدر لي ان انظم اول ملحمة شعرية عالمية في ديوان كامل عن الام (ملحمة الامومة) .

وانا لا ادعي اني احطت بجميع ما تصديت له في هذا المعجم وتوامه ، فاللغة العربية بحر ، لما اتجاوز مياهه الاقليمية بعد ، وانا في الشطر الثاني من عامي الخامس والسبعين . وما على الذين يجيئون بعدي الا ان يصححوا هفواتي ، اذا كانت ثمة هفوات ، ثم يكملوا الطريق الوعر ، الذي سرت عليه ، واحدا بعد اخر ، كما يفعلون في سباق

جولة في الفجر

تعـالي غـادة الشعـر	نجـل في موكـب الفجـر
نسامر انجم الاشواق ..	عنـد الشاطىء البحـري
فان الشط في الناظـور	مهـد الكوكـب الـدري
هنالـك ينسـج العشاق	اخبـار الهوى لعـذري
هنـالك يكتبـون اغاني	الاحـلام .. والعمـر
تعـالي نسرق الاسرار	مـن ايماضـة البـدر
ومـن ايماءة الاجفان	او همس على الثغـر
اعينيني .. اعينيـني ..	لاكشـف مكمـن السر
لابحث في بطـون الحوت	عن خيـط مـن الـدر
فاصنـع منـه باقـات	مـن الاخلاص والطهـر
تعالي ، كـاد يخنقـني	فحيح الزيـف والغـدر
وقامت حـولي الجدران	تسعى بي الى القهـر
الا عـودي الى الانوار	في شطـآتنا السمـر

الناظور ـ المغرب الاقصى — القمري الحسين

المراوحة ، الذي يسمونه سباق المواصلة ؛ او سبـاق البريـد .

وانا اشهد ان اقتحام ميدان التحقيق اللغوي يحتاج الى جراة عظيمة ، ولا بد له من التعرض لاقلام النقاد ، الذين يمزج بعضهم مدادها بسم نقيـع ؛ قد يسيء الى شهرة المحقق ، وينال قليلا من قدره ، الذي بنـاه في عشرات السنين من الدراسة المتواصلة ، والبحث العميق والتحقيق الدقيق .

ولو بقينا نتهيب اقتحام هذا الحقل اللغوي الشائك لازداد الشوك فيه ، وازداد نزف لغتنا المحبوبة ، وقضينا في نهاية الامر على معالمها الاصيلة ؛ واستبدلنا بها لغـة ممسوخة ، ليست منا ولسنا منها . وهذا حملني على ان اضع في كفة سمعتي اللغوية والادبية ، التي نزت بهـا خلال اكثر من نصف قرن ، وما قد يحاول بعض طغـاة النقاد ، ذوي الافاق الضيقة ، النيل منها ، واضع لغتي المحبوبة وعروبتي الخالدة في كفة اخرى ، فرجحت كفة اللغة والعروبة ، وشالت كفة الانانية والرهبة ، واقدمت على تاليف « معجم الاخطاء الشائعة » ؛ ثم هذا المعجم ، حبا بأمتي التي فديتها ، خلال حياتي الطويلة ، بالنفس والنفيس ، معتمدا على صبري الطويل العنيـد ، وعلى صداقة للمعجمات اربت على خمسين عاما ، وعلى اخلاصي الذي ليس له حد ـ لامتي ولغتي؛ وثقتي بنفسي وبشعبي العربي النبيل الذي عود ادباءه وعلماءه انصافهم بعـد موتهم دائما ، وقبل موتهم احيانا .

ليقل النقاد ما يشاؤون ، وليحكم التاريخ بيني وبينهم ـ اذا وجدوا ـ ؛ فحسبي انني اقدمت على تأليف معجمين من هذا النوع ؛ متوكلا على الله سبحانه وتعالى ، ومستمدا منه العون لاصدار المعجم الثالث : « عشرات المعاجم » .

والى اللقاء في ذلك المعجم ، الذي ارجو ان اكتب مقدمته ، وانا جالس في القدس ؛ في شرفة مطلة على المسجد الاقصى المبارك ، وقبـة الصخرة المقدسـة ، وكنيسة القيامة الخالدة ؛ ولو كره المستعمرون .

محمد العدنـاني

الشاعر صالح جودت

بقلم الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي

* * *

شاعر مصري أصيل : عاش مع الشعر وفي رحابه قريبا من نصف قرن .

وقد بدا نشاطه الادبي في نطاق جماعة ابولو التي اسسها الدكتور احمد زكي ابو شادي عام ١٩٣٢ ، وكان الشاعر صالح جودت احد اعضائها، واحدكتاب مجلتها الشهيرة، مجلة ابولو .. ومنذ ذلك الحين ظهر اسم الشاعر صالح جودت شاعرا رومانسي المذهب كلاسيكي الشكل، وجداني النزعة ، يترنم بالشعر ويؤثره ايقاعا جميلا ، وصورا حالمة . وشكلا فنيا ملتزما ، وخيالا محلقا ، وتجربة شعورية عميقة ؛ ورؤية حادة دقيقة .

كما لمع اسم صالح جودت في الصحافة ، وبخاصة الصحافة الادبية ، وفي مهرجانات الشعر وانديته ومواسمه وفي مجال الاذاعة والاعلام .

وصار صالح جودت يمثل الشعر المعاصر تمثيلا رائعا ، واصبح ثقلا ادبيا وفنيا كبيرا ، واضحى اسمه علما مرموقا بالحب والتقدير في جميع أنحاء العالم العربي، وهو عضو في اللجنة العليا في المجلس الاعلى للفنون والاداب في القاهرة ، ورئيس لجنة الشعر في المجلس ، كما انه رئيس تحرير مجلات دار الهلال كذلك .

ومن نحو عام اخرج الشاعر صالح جودت كتاباعن الشاعر احمد فتحي ومنذ شهور نجح في جمع شعر الشاعر الهمشري والذي ظهر في ديوان مطبوع طبعا جميلا على نفقة الهيئة العامة للكتاب .

وبين يدي اخر دواوين الشاعر صالح جودت وهو « الحان مصرية » الذي يشتمل على نحو ستين قصيدة من شعر الشاعر تمثل فنه وجميع اتجاهاته في الشعر ومذهبه .

وفي قصيدته « عمر الشاعر » يقول صالح جودت في عذوبة ونغم شعري جميل :

يا حلوة العشرين لا تفزعي   من همسة الخمسين في مسمعي
انا شباب سرمدي المدى   انا ربيع دائم المطلع
لا يكبر الشاعر يا طفلتي   فعمره في حسه الطيع
لا زلت بالروح قوي السرى   كدفقة النهر من المنبع
قلبي على العشرين فيدته   فعمر قلبي ليس يجري معي
اعيش بالشعر غرير الصبا   امرح في فردونسه الممتع
اهوى الصبايا والمرى الدمى   وافرش النوار في مخدعي
واشعل النور بقلب الدجى   وانثر الخضرة في البلقع
وابدع اللحن لكي ترقصي   واغمز الطير لكي تسجعي
واصنع العطر لتتروحي   واعصر الفجر لتستمتعي
واحتوي حبك في خافقي   فاملك العالم في اصبعي
وافتح التاريخ كي تدخلي   ترفقه من بابها الاوسع

ولو كانت القصيدة مؤرخا لها لعرفنا عمر الشاعر حقا ، ولكنها تمضي دون ذكر لتاريخ نظمها مما يوقعنا في الحيرة التي قصدها شاعرنا .

والقصيدة تمثل موسيقى حلوة هي احد العناصر الاساسية في فن الشاعر ، كما تمثل كذلك الحوار الذي يدور في جمال ولوعة وحيرة وهو العنصر الثاني من عناصر المذهب الشعري عند الشاعر ، والى جانب ذلك اللغة الشاعرة المختارة ، والحب الذي تدور حوله القصيدة والحب موضوع رومانسي اذا تناوله الشاعر بلهفة المحب وعذابه وأشواقه، وتناوله بقلبه وجراحه وآهاته وعبراته

وهذا هو الشاعر وفنه صفحة مفتوحة لا غموض فيها ولا التواء بحال من الاحوال فاذا ما جئنا الى موضوع وطني من مثل انشودة المعركة القادمة ــ التي نظمها الشاعر قبل ٦ اكتوبر طبعا ــ نجد الشاعر وفنه الرومانسي واضحين تمام الوضوح يقول الشاعر :

ارجعوا ايها الطغاة   اطرقوا ايها البغاة
اطرقوا شعبا زحف   فاحذروه فقد عرف
وحدة الصف والهدف   ارجعوا ايها الطغاة
آن ان نرفع الجباه   اطرقوا .. شعبنا الكبير
بعد الزحف والمسير   غاضبا ثائر الضمير

محركا وحدة المصير

وهنا نجد اللغة الشاعرة، ونجد السهولة والوضوح، ونجد الموسيقى والتصوير ، ونجد التحدي والاصرار ؛ والثورة الزاحفة ، والغضب من أجل ارادة الانتقام .

كل ذلك له مدخله في هذا التصوير الرومانسي المتميز الجميل .

وتكاد لغة صالح جودت تصل في بساطتها وطبعها وجمالها وسلاستها الى لغة الشعب .. والى لغة النثر معا ، كما كان فن ابي العتاهية الشاعر العباسي الزاهد الكبير الذي قيل فيه ذلك ايضا .

وتسجل كثير من قصائد هذا الديوان احداث مأساة ١٩٦٧ .. كما تمثل تقنية الشاعر التي طغت عليها الاحداث قصيدته الجميلة « سراب » التي يقول فيها :

سراب وكل حياتي سراب   وفي وهمه قد اضعت الشباب
سراب ... واسلمته خاطري   فعللني بالاماني الكذاب
وتابعته رغم يأسي به   ومعرفتي انه لا يصاب
يروح كمقترب في ابتعاد   ويغدو كمبتعد في اقتراب
واجهدني السعي في اثره   فلا القلب مل ولا العقل ثاب

ان الشاعر الكبير صالح جودت قد عاش ــ بروحه

---

(1) من كتاب « الادب العربي الحديث ومدارسه » تحت الطبع. وقد كتب هذا المقال قبل وفاة الشاعر بقليل .

في وادي العرائس

غجرية سمراء يعشقها الندى	جبلت عصا الترحال والاسفار
رقصت على ضوء الفوانيس التي	راحت تمور بخصرها الثرثار
ما بين موال وآه مرفق	طبل ومزمار ورقصة نار
في خيمة غصت بكل مليحة	يرنو الشباب بنظرة وحوار
الشاي نشربها كشارب ...	لم يصح بعد من الهوى الغدار
راحت بعينيها تهيج صبابتي	وبثغرها شفق من الاسرار
يا حلوة الليلات قد يكفي بنا	رقص وغمز .. شاقني اعصاري
غجرية الرعشات من اي الدنا	قدمت خطاك لنا فكان دماري
وادي العرائس كم وهبت جميلة	تهوى الرحيل كعاشق الاشعار

سلمية ـ سورية

خضر عكاري

ورعشات فنه ووهج شاعرته وجلال احاسيسه وجمال ادائه وحلو تنمه ـ كل احداث الشعر ومدارسه ومذاهبه وتياراته بعد الحرب العالمية الاولى حتى اليوم .. وهو بصلته الوثقى اليوم بجميع تيارات الشعر والفن والفكر يعد علما من اعلام الشعر المعاصر ، وسلاحا شحذته ابولو منذ اربعين عاما ليناضل في معركة الشعر والشعب والحرية والحياة نضال الرواد الملهمين الاصلاء .

وقصيدته « القاهرة الجميلة » في ديوانه « الحان مصرية » تمثل حب الشاعر العميق لمصريته ولتاريخ بلاده :

ليك يا امل العروبة
الديك لا ارجو مثوبة
اهواك قاهرتي الحبيبة

لبيك من المواد	عاطفتي ومن عمق قلبي
اهواك يا بنت	الاكابر من فراعنة وعرب
يا ملتقى الوجهين	يا وعد الحبية والمحب
لا زلت بوثقة	الزمان يلين عندك كل صلب

والحب هو فلسفة شاعرنا صالح جودت .. حب الجمال ، وحب مصر ، وحب العروبة ، وحب التراب الوطني .. وحب التاريخ المصري الاسلامي العربي .. وحب كل مفاخر الوطن ونضاله وحريته .. فهو شاعر الحب وشاعر الشعب في عصرنا اليوم ..

ولنا عودة الى الكتابة عن فنه من دواوينه كلها حينما تظهر مجموعة شعره كاملة في طبعة جديدة قريبة .

ويقول السحرتي عن رفيق كفاحه الادبي : كان صالح في شعره الباكر وعند اتصاله بمدرسة ابولو من اعذب اوتارها الشعرية ، وامتاز بشعره الغزلي وغنائيته الحلوة الخلابة ، وبعبارته الصافية العذبة في مثل قصائده: العيون الزرق ، ظمآن .

وقد نرى اليوم ان مثل هذه القصائد بعد مرور اكثر من ثلاثين سنة قصائد عاطفية خفيفة ، ولكنها كانت في ١٩٣٤ حدثا جديدا ؛ ان لم اقل : فنا جديدا في الشعر الغزلي الخالص ، لانها عبرت عن لهفات القلب في جراة ، ولانها اتسمت باسلوب عذب متحرك لا عهد لنا به .. ولقد مثل صالح جودت مع الموهوبين من مدرسة ابولو : الصيرفي : الهمشري ، السحراوي ، حسن حبشي ، محمد رجب ، وغيرهم من شباب جيل الثلاثينات ، ظاهرة تغيير الاسلوب ، من اسلوب رصين جزل او اسلوب غريب معقد الى اسلوب سهل لين مطواع عذب الموسيقى .

وكان صالح من رواد الموسيقى الحلوة الرخيمة والاسلوب الجذاب ، وهذا خطر صالح جودت في مرحلة الثلاثينات واهمية شعره . وقد زادت موسيقاه حلاوة ورصانة بمرور الزمن (٢) ، واذا كان لمدرسة ابولو ، ومن روادها صالح، فضل ففضلها في هذه النقلة الفنية الجديدة من الشعر التقليدي الرتيب الى الشعر الابداعي الفني الجديد (٣) .

القاهرة

محمد عبد المنعم خفاجي

(٢) ٨٠ دراسات نقدية للسحرتي .
(٣) ٨٢ المرجع نفسه .



سليمان عواد

سليمان عواد
شاعر القصيدة النثرية

بقلم مصطفى النجار

***

لست هنا بصدد الحديث عن تاريخ قصيدة النثر في العالم ومن هو اول رائد لها ؟ وكيف وصلت الى ادبنا المعاصر ؟ ولست ابغي دراسة ابعاد هذه الظاهرة الادبية التي تشكلت بمرور الاعوام ؟ وكما لن احاور من هاجموها بشدة امثال (عبد الوهاب البياتي وشوقي بغدادي واحمد سليمان الاحمد) ولا من اشادوا بالدور الذي قامت به الى درجة تفضيلها على قصيدة الشعر الحر وذلك في فترة ما من مسيرة الشعر السوري مثل (الناقد خلدون الشمعة) .

وفي جميع الاحوال يمكنني ان اردد ما قاله احد الادباء : « ان اعظم فن هو الذي يوصل للانسان اعظم عدد ممكن من الافكار بأي وسيلة من الوسائل » كما ان بعضا من الشعراء المعروفين جنحوا اخيرا الى كتابة قصيدة النثر كمرحلة متطورة ومتأخرة في مسيرتهم الشعرية امثال (ادونيس والقباني ودرويش) بينما آخرون بدؤوا بها وما زحزحوا عنها فكانوا رواداً في عالمها وممن ساهم في وضع حجر الاساس في بنائها هو الشاعر سليمان عواد .

ولكنه بقي بعيدا في الصمت وفي دائرة الظل رغم انه طبع عدة مجموعات اذكر اني طالعتها في فترة الستينات مثل (شتاء وسحر نار واغان بوهيمية) بالاضافة الى بعض القصائد المنشورة هنا وهناك في صحف ومجلات تلك الفترة ومما زاد سليمان صمتا كفه عن النشر ايضا ما يقارب عشرة اعوام .

ولكن من يولع بسحر الكلمة وهو الذي قال في كتابه سحر نار ص ٩٥ : « ان لبعض الكلمات في نفسي نشوة السحر وسكرة الرضاب : (نهر الرين .. الدانوب .. بوهيميا .. باريس .. فلوريدا .. القوقاز .. الهند .. ايران .. جزر الهاواي ، أن كلمة من هذا النوع تلهب بشدة اخاذة مشاعري وتشعل النار في قلبي وتضعني في سفينة للاحلام كبيرة » .. لا بد ان يعود – وهو المسحور – الى عالم الكلمة وقد عاد من جديد باشراقات ينشرها تباعا على صفحات مجلة « الثقافة » الدمشقية وكم نأمل ان تظهر في مجموعة كاملة .

هذا وان من يطالع قصائد هذا الانسان سواء في فترة الستينات او في فترة السبعينات – مع وجود نسبة التطور في الفترة الثانية – يلمس انها تتميز بالبساطة والعمق ، بالجدة والفطرة ، بالتأمل والواقعية ، هي خليط من المشاعر الانسانية ، ومزيج من الالام والاحلام ، المثالية والتمرد .. وان في كلماته : زمزمات الغدير . وهدير الامواج ، تغريد البلابل وفحيح الافاعي رفرفات الدوالي وتحدي العوسج .

ودائما من خلال صوره البسيطة يعلن راية العصيان على زيف المدينة والروتين وامراض التحضر الحديث برؤيا شمولية تتخطى بمضموناتها الانسانية حدود المكان والزمان معا ، وكما يصطدم كل مفكر وشاعر بمتناقضات العالم والمجتمع فيرتد متألما كذلك يصرخ عواد :

ان صراخي يضيع في زحمة الناس
وضجيج المدينة
كما يضيع العقل في الدخان
ان صراخي يتمزق كأغنية طير جريح في البرية
يتلاشى هباء في خرائب عقول المدينة ؟

اذا هي تجربة ريفي هاجر من قريته الى قلب الزحام في المدينة ، ونقمة شاعر على خرائب عقول المدينة ، وان مثل هذه الرنة لتتهادى في اغلب شعره وتتحول الى ندب ورثاء يذكرنا برثاء الشاعر الانكليزي المعروف : ت.س. اليوت لحضارة الغرب وها هو عواد يتمنى :

اتمنى لو اكون غجريا .. بدويا
ذئب الصحراء .. البراري .. الاكثر استقلالا

من شعاع الشمس فوق الرمال الذهبية
ولتذهب المدينة التافهة الى الشيطان ..؟

نتساءل لماذا كل هذا الرثاء على المدينة والمدينة نتاج حضارة يقوم على صنعها هداة القرن العشرين ؟

ويمكن تلخيص الجواب بعبارة واحدة من عباراته النزقة الصادقة :

ما المدينة .. اذا كان خبزي اليوم معجونا بدمي ؟

هي صورة مكثفة تلخص اسباب النفور من الحضارة المجحفة ، كما ان احساسه بالاهمال وعدم الاهتمام بشاعريته ـ وهذا احساس حق وواجب تؤديه الشعوب الراقية لموهوبيها ـ يولد عذابا في نفسه يتضخم الى ما يسمى بعقدة الشعور بالاضطهاد في علم النفس وها هو يقول :

وحياتي ..
هل حياتي الا عنقود من العنب
ينشد يدا تقطفه
وثغرا يروي ظمأه برحيقه ؟
واأسفاه ان رحيقي ينطوي على ذاته
ورياحا شتائية قارسة
تجفف هذا الرحيق مع عنقوده
بانتظار حمله الى معاصر الابدية ؟

وان هذه النبرة لتزداد عنفا في قصائد عديدة ، والانسان هو سيد العالم .والشاعر بما يتميز الا يستحق ان يعيش حياة سعيدة كمثل الاخرين (انا العالم والعالم انا ...) وعندما يصطدم بالحياة وتموت الازهار في عتمة الرطوبة يعلن بمقطوعة ـ تميزت بعنصر التشويق والتشويق الفني موجود بوفرة في اغلب قصائده ، يمد جناحيه على العالم فيردد :

(الا يستطيع ان يكون وردة جبلية .. شجرة في غابة عذراء ، عصفورا ، كناريا ..) ولماذا كل هذا ؟ (ليحيا دون قوانين الانسان ودستور البحار ؟) انه تعويض الفنان بفنه عندما يجابه الحياة ويطلب ما لا يتحقق ؟

وعندما ينفض يديه من حياة مرة يلتجيء الى الطبيعة ويندمج في حيواتها :

ايتها الطبيعة الرائعة ..
انا صديقك الوفي والشاعر الذي يحبك
افسحي لي مكانا صغيرا في قلبك ..
حتى اتلاشى نهائيا في احشائك ....
واغدو بحيرة ، نهرا ، غابة ؛
عاصفة رعدية شتائية
ليلا مليئا بالثلج والنجوم ..

انها تتجلى في عالم الفطرة والصفاء لانه ضنين بكرامته وعزة قلمه ويأبى ان يكون رقما من الارقام او دمية عجماء ؟

كما ان عوادا يعلن راية الحب للحب والبراءة والامان والسلام :

من اجلك يا ولدي الحبيب، ومن اجل اطفال العالم سنعمل على تدمير مصانع الاسلحة لتتخلص البشرية نهائيا
من قصص اعتداءات الاقوياء على الشعوب الضعيفة

وفي مقطوعة رائعة استطاع بعفوية ان يمزج المه الخاص بالعام بل ان يصبح الشعور العام ذاتيا فيقول مؤكدا على تقديره وحبه لانسان العمل بكرامة :

كان قلبي حزينا حزن عامل المخبز الضغير ..
الذي اضناه التعب وارهقه النعاس
حزن كاسر الحطب الذي يعمل والعرق ينبع ..
صرخة احتجاج من جبينه المتعب ..
وكان هذا العرق صلاة المتعب ..
وتسبيحة الفقر في صوفية متوحشة !

اذا كلماته الشعرية ليست شطحات ذاتية منغلقة بل ان جهازه يلتقط من الواقع شرائح يضفي عليها من فنه ماء الحياة ، وقد ينقلها الينا عارية وبصراحة :

الشعوب الجاهلة تسعى لتحطيم مواهب ابنائها
وتحطيم ابنائها الموهوبين انفسهم ؟

وانه ليؤكد على مجموعة قيم تتمثل في الحق والخير والجمال في واقع يحتدم بالمآسي ، وارض تتفجر براكين حاقدة ، وذئاب تسرح وتمرح تنتصب حدائق الحب والشمس ، ويلتجيء دائما الى الطبيعة عن اصالة وبعد تجربة لا كما يفعل بعض الرومانسيين الهاربين تقليدا ؟

مثل هذه القيم وغيرها تتماوج في تعبيراته وصوره وجمله دونما تعقيد وبلا وزن ولا قافية .. انه النثر الراقي والشعر الذي يبث في تلافيفه النثر ، وافرازات الذات منصهرة في زحام الحياة اليومية ، والمنطلقة الى « يوتوبيا » بعيدة كل البعد عن مطامع الادمي البهيمية واحقاده النرجسية ، وشوائبه السفلية ! والى صنع « المدنية الفاضلة » للفارابي في مدينة القرن العشرين !

وفي ختام هذه الكلمة استطيع ان اعدد بعض المزايا الفنية لقصيدة النثر عند عواد ـ وتحتاج الى دراسة منفصلة ـ وهي :

ـ كثافة التعبير بالصورة
ـ الوحدة العضوية ووحدة الموضوع
ـ النهاية الحاسمة والدهشة الملائمة في كل قصيدة
ـ الاستفادة من ادوات القص كمثل الحوار
ـ توفر سمات التشخيص
ـ كثرة التشبيهات العفوية
ـ استغناؤه عن حروف العطف احيانا
ـ حداثة اللفظة وجمالية الصورة

كما لاحظت ما يلي :

١ ـ قد يجنح لواقعية الموقف وحدته الى نقل الموقف الحياتي باسلوب مباشر ونثري عادي مما يفقد من عنصري التخيل والجمالية التي يتميز بها الشعر المنثور

العش المهجور

اقفر العش من اللهو فما
فيه من امس سوى اشباحه
وتولت ذكريات حلوة
من نعيم الحب في افراحه

اقفر العش ، فما من صادح
يتغنى وانطوى عهد الهوى
وانا ابكي شبابي وارى
صرح آمالي تداعى وانطوى

اقفر العش سريعا ومضت
يا حبيبي عاطرات الفكر
ورجعنا نبتغي آمالنا
وهي اغلى امنيات العمر
فاذا كل الذي مر بنا
قبض ريح في فراغ مقفر

اقفر العش وما عاد لنا
فيه ما يغري ولا ما يرتجى
الترانيم التي قد اينعت
زمنا فيها تولاها الشجى

كيف مرت يا حياتي ليلة
كنت فيها النور يجلو ظلمتي
اذهبت عيناك عن روحي الاسى
وازالت عنه بقيا لوعتي

يا غراما شاع عطرا دافقا
ولحونا ساحرات ملهمه
فلذا كل عروقي فجاة
بصداها الحلو اضحت مغرمه

يا لها من غفوة شيقة
كمراقي الخلد بين العاشقين
اثملتنا قبلة ساحرة
ففدونا كالحيارى تائهين

ورجعت اليوم ابغي املا
راحلا في مهمة الماضي البعيد
رقدت كل صباباتي به
وتولت كسراب لا يعود

بغداد
عبد الخالق فريد

على غيره لفقدانه بالاساس عنصر الموسيقى التفعيلية واقتصاره على موسيقا الكلمات وسياقها الفني .

٢ ـ قد اكون مع اكثر احتجاجات الشاعر على المدنية الزائفة ولكن هذا لا يبرر جنوح الانسان الى المجتمع الزراعي .. وللحضارة وجهان ! مع يقيني ان هذه حالة سيكولوجية بحتة وقد افرد لها مقالا خاصا .

٣ ـ قد يعزو « عواد » اسباب الظلم على وجه الارض لسبب خفي غير الادمي الظالم على وجه الارض وهذا ما تبين في عدة اشراقات له واخص بالذكر تلك المنشورة في ٧ حزيران ١٩٧٥ من مجلة الثقافة الاسبوعية، والحقيقة ان الظلم هو من صنع الانسان لاخيه الانسان ولا نستطيع اتهام قوة اخرى مطلقا !

٤ ـ وكمثل الشعراء العاطفيين الذين يكتبون بعفوية تلمح عند عواد ظاهرة التعميمات في اطلاق الاحكام وفي تصوير الاحداث وغيرها .

٥ ـ البساطة عنده تنقلب في بعض الاحيان الى مسلمات :

بالصدق والاستقامة صعدت شعوب الى القمم
وبالكذب « والثعلبة » سقطت شعوب الى الهاويات؟
وما هذه الملاحظات الا ما يؤكد على تمرد شاعر :
هذا انا شاعر متمرد .. طليق
كالنسر .. والريح .. وعطر البراري !

يتكلم عن الم وبعفوية غزيرة ، ويلخص في فنه اسلوبا شاعريا كأسلوب المشاهير في العالم امثال (لامرتين وعمر الخيام وطاغور والفرد دي موسيه) وتجربة انسان متألم حتى النخاع الشوكي ، وحقيقة مطلقة للفن ، وديمومة لقيم الحب والخير والحق والجمال ..

وهو يغني في الختام :
لن ادع اليأس الجهنمي
ينشب اظفاره المتوحشة في دنياك يا قلبي
لن اجعل التاعب تستبد بطهارتك ..؟

جلب
مصطفى النجار

لمحته من بعيد يجلس في ذات الركن من المقهى الذي تعرفت عليه فيه لاول مرة ، حين لفت انتباهي سحب من الدخان الازرق ، تغزو طاقتي انفي بكثافة تبثت على انفاسي باصابع حديدية خشنة . سماوالمكان مغلق ، تتوالد فيه السحب وكذلك تموت وتدفن .

تطلعت الى مصدر تلك الغزوة ، وعلى لساني فيض من الشتائم بدات رؤوسها تتململ للانطلاق بيد انها ما لبثت ان ارتدت الى اعماقي ندما واسى حين طالعني وجهه كالح جامد النظرات ، تعض فتحة الفم منه على عقب سيجارة بين اصابع يد نافرة العروق، تمسك بسيجارة اخرى بكر، في طريقها لحريق اقرب الى مجزرة منه الى عادة التدخين .

تحسست جيبي بحركة عفوية ، واخرجت علبة السجائر ، وتناولت منها واحدة بلطف كأنما اعتذر لها عن سوء التصرف الذي تصادفه بنات جنسها من الجالس في ذلك الركن. ولما لم اعثر على الولاعة وجدتها فرصة للتحدث مع ذلك الجالس ، غير انه لم يحول نظراته عن جهة لم استطع تحديدها ، بل امتدت اصابعه تغرس في فمه السيجارة ، ومن ثم دفع الي بالعقب الذي لم يبق منه سوى « فلتر » حفرته اسنان منهومة: تعجبت من اين عرف قصدي ولم يحول نظراته الي ، فقلت وانا اجلس على كرسي قبالته .

ــ قاتل الله السجائر فانها جرذان العمر والمال .

القى علي نظرة من تلك التي يشبع المرء في اعتبارها ان كانت له او عليه فتلمست طريقا اخرى لاخراجه من الصمت فقلت :

ــ لست من رواد هذا المقهى ، فهذه اول مرة اراك هنا ؟

عاد ينظر الي تلك النظرة صعبة المعنى . واخيرا قال بصوت واهن ، يقطر لوعة :

ــ بالعكس فانا زبون دائم منذ اكثر من شهرين .

وتذكرت اني انا الذي يدخل المقهى لاول مرة . فابتسمت ابتسامة تعثرت على وجهه بالف نتوء . فطرحت مشروع السرور جانبا .

وبدات امواج من الغم ترمي بهياكلها علي . فسرى لذلك بيني وبينه تيار من التفاهم الصامت ما لبث ان جرى حديثا غير واضح المعالم بيد انه كان كافيا لان ادخل صناري في خيوط حياته : فهناك فتاة نثر في طريقها الزهر ففرشت قلبها على دربه . ثم اصابه مرض مفاجىء فتحولت عنه كما تحول اصحاب الصحة والشباب الفائر .

وحتى هذا القدر انفلق لسانه على

الظل الاعوج

بقلم احمد عوده

فيض من الاسئلة طرقت ضميري استعضت عنها بالحديث عن مشروع قصة حب لم تتأكد بعد بيني وبين فتاة تبادلت واياها النظرات ثم ابتسمت لي . وظللت طوال شهر او يزيد ، لا احظى منها بغير الابتسام . ولم استرسل بذكر احلامي كلها : فقد قطعت علي تشنجات وجهه حلاوة الحديث ، تشنجات حاول اخفاءها بان طلب لي القهوة المركزة وطلب لنفسه اليانسون وقال وشفتاه تتقلصان على ابتسامة مرة :

ــ للكبار شرابهم وكذلك للصغار شراب .

قصة

سحقتني لهجته الحزينة فقلت مخففا :

ــ انت كبير القدر عظيم .

ابتسم ذات الابتسامة المرة وقال:

ــ بالعكس ، فالكل وتلك الفتاة منهم يرون ان ظلي اعوج وانقض على كوبه يحتسيه بمثل النهم الذي يعامل به سجائره . وامر على دفع الحساب قبل ان تمتد يده الى عكازة كانت نائمة اسفل الكرسي . قبض عليها فتقلصت عضلات جسمه بالضغط على مقبضها كي ينهض ، فانغرس طرفها المدبب بمعدن النحاس في الارض المتربة حتى توارى . واولاني ظهره وخرج فتعلقت عيناي على حدبة نبتت في اعلى الظهر لم الحظها طوال جلستي معه ، اخلت توازنه في المشي فظلت هيئته المتارجحة مع ما سبقها من تركه اياي على تلك الصورة المفاجئة

ــ على لذة جنيتها بنيل وجهه المنقبض بحفنة من سرور .

وجعلت استعرض ما دار بيننا من حديث، فحضرني تشنج قسماته حين اتيت على ذكر قصة حبي الوليد .

فعلمتني هذه الحادثة ان اقصد المقهى حتى اذا ما رايته يحتل ذلك الركن اجلس قبالته وانتظر ان يبدا الحديث الذي يشتهي فاشاركه الهجوم على حواء فتنبسط اساريره ، فيداعب مقبض عكازته ويمسح على جرمها حتى تنتهي اصابعه الى طرفها النحاسي المدبب ، فيسألني بضحكة دفعت الغم ضربة باهظة .

ــ وبعد الابتسامة ؟

وعندما اجيبه ان لم يتحرك قطار الحب عنها ، يسمح لنفسه بضحكة اخرى : يلتبس علي معناها . وتعود اصابعه الى المسح على جرم العكازة بحنان ثم يقول في همس :

ــ بعض المحبين يحملون سلم الغرام بالعرض . وهم الاشقياء .

ويبعث بعض انشراحه الى قلبي السرور : فاقول متلمسا مخارج الحروف :

ــ انني كطحالب البحر لا اسعى

حفنة اشواق

في غلس الليل يعاني الضجر ... ودمعه يمتص عزف الوتر

فانه ذاك الهزار الذي ... يحيا بلا وكر ولا مستقر

يحمل نبض القلب في شدوه ... وشهقة الروح به تستعر

يشرب من نبع السنى شعره ... في لحنه العذب تفيض العبر

تلهب في الاحشاء اشواقه ... لهمسة الحب ، وحلو السمر

وعسعس الليل على كونه ... وانهار حلم الملتقى واندثر

مرغ بالدمع مناجاته ... وما لشكوى قلبه مصطبر

قد هاجه شوق الى مرتع ... فيه الصبا يرشف خمر الوطر

والبدر ينثال بموج الضيا ... في شاطئ الاحلام عند السحر

ويورق الحب ، وتزهو الدنى ... يوم اللقا تحت شعاع القمر

بغداد ... خضر عباس الصالحي

للنداء بل انتظره كي يسعى الي . فيتخلى عن عكازته لفترة وجيزة وتنضم كفاه في تصفيقة خجلي ويهتف :

ـ عين الصواب ما تفعل ، فالسعي يذهب الهيبة .

وينشأ بعد ذلك يتحدث بعد ان تتخلى شفتاه عن سيجارته يتركها تموت بين سبابته والوسطى وينيه الكلام أن يشعل غيرها ، فاقيس بذلك مقدار سروره .

ونشداني له السرور ما جعلني اسرغ في المشي عندما لمحته يجلس في ذات الركن من المقهى ، اردد الاجابة عن سؤاله الدائم « وبعد الابتسامة»؟ فقطار الحب قد غادر المحطة الى موعد .

ثم في لقاء عند المأذون ساصحب حبيبتي اليه في الغد من بيتها الذي تقطنه وحيدة الا من صورة لي علقتها على الجدار .

وقد ساعدني الانبساط الذي لقيني به على ان اسرد القصة من اولها : غير ناس ادق التفاصيل . فظلت اصابعه تمسح على العكازة بحنان ؛ فيما كان وجهه ملعبا للمد والجزر ، حتى اذا ما اتيت على ذكر اسم حبيبتي ردد الاسم وعيناه ترسلان بريقا مخيفا اشاع الصقيع في جسدي كله ولمحت الدم ينبح في كفه ورأس العكازة المدبب منغرس فيها . فاشرت باصبعي اشارة خرساء ، فلم يظهر عليه انه يحس او يرى . ثم توسل للنهوض بكل اعضائه ، واولاني ظهره الاحدب فانغرست عيناي في الحفر العميقة التي تركتها عكازته في ارض المقهى المتربة ، فرايت حفنات السرور التي كنت ارشق بها وجهه ، ترتد في عيني رمادا باردا منبعه تلك الحفر التي تركتها عصاه فهاجمني شعور بالاسى فظيع لم اتخفف منه الا بتذكري الموعد الذي رتبته وحبيبتي في الغد . فقضيت ليلتي اضم هذا الموعد اقبله بشغف حتى اذا اتى صباح اليوم التالي انطلقت في جهة لو اغمضت عيني ما اخطاتها .

وهناك في البيت الذي زرعت احلامي بالجملة ـ ، وجدتها . وجدت حبيبتي جثة تدفقت منها الدماء من اكثر من موضع ، وتجمدت على جروح غائرة ، فانتحرت لمشاهدتها كل آمالي التي احتضنتها في المساء . وكانت عيناها مفتوحتين يطل منهما الرعب. فانحنيت اسبلهما على طمانينة كانت ترجوها وفي انحناءتي استقبل انفي رائحة سجائر عطنة ، كانت اعقابها مبعثرة على ارض المكان تركت عليها اسنان منهومة حفرا بغيضة ، اختلطت بشظايا زجاج صورتي المحطمة . كما لحظت وانا خارج، حفرا عميقة، منغرسة في باطن الارض المتربة كتلك التي دفنت فيها ارتياحي بالحديث الى ذلك الاحدب .

عمان ـ الاردن ... احمد عوده